

7

د. محمد عمارة

عمر بن عبد العزيز

ضمير الأمة و خامس الراشدين

دار الوحدة للطباعة والنشر

حبيبي أحمد

في عيد ميلادك السعيد أهدي
إليك كتاباً عزيزاً علي..
كتبته عن إنسان عزيز على
كل مسلم .. إنه عمر بن عبد العزيز..
وأتمنى على الله - يا أحمد يا حبيبي -
أن تقرأ هذا الكتاب قريباً..
وأن تتعلم من سيرة هذا
الإمام العظيم .. فهو قدوة
حسنة .. وكيف لا .. وهو
ضمير الأمة الإسلامية ..
وخامس الخلفاء الراشدين..
كل سنة وأنت طيب يا أحمد .. أنت
ويا بابا .. وماما .. ومريم .. ويحيى .. وكل
الأسرة، يا حبيب
جدو .. يا أحمد

عمر بن عبد العزيز

ضمير الأمة و خامس الراشدين

جدو
محمد عمارة
١٢/٨/٢٠٠٢م

د. محمد عمارة

عمر بن عبد العزيز

ضمير الأمة
و
خامس الراشدين



١٩٨٥



شارع ليون - الحمراء - بناية مبشر -
ص.ب ١١٣/٦٣٨٤ هاتف: ٣٥٣٨٨٥
برقيا (دالوحدة) بيروت - لبنان

مقدمة الطبعة الجديدة

ليس هناك عاصم للحضارة ـ أية حضارة ـ من الفناء إلا بـ «التجديد»..

وليس هناك معنى للحياة إذا هي خلت من «العدل»، أو من شرف النضال في سبيل أن يسود حياة الناس، ويتأسس عليه المجتمع الذي يعيشون فيه!».

وفي الاسلام تعلمنا ونتعلم أن «التجديد» قانون وسنة من سنن الله، إذ «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجد لها دينها»[1].

---

(١) حديث شريف. رواه أبو داود في [السنن].

وفي الاسلام تعلمنا ونتعلم كيف علا ويعلو مقام «العدل»، حتى لقد أصبح واحداً من أسماء الله الحسنى؟!..

* * *

وعندما ألف المسلمون في «التجديد»، كفن من فنون الحضارة الاسلامية، انعقد إجماع الجمهور على أن عمر بن عبد العزيز هو طليعة سلسلة المجددين في حياة هذه الأمة وحضارتها!».

وهذا «التجديد»، الذي نهض به عمر بن عبد العزيز، وارتاد ميدانه، لم يكن «كتباً» ألفها، ولا نظريات أودعها بطون «الأسفار».. وإنما كان «عدلاً» أعاد له السيادة في حياة الأمة وقوانين المجتمع، بعد أن خلعه ولاة الجور عن العرش الذي أجلسه عليه الاسلام!»

* * *

واليوم... يكاد الاجماع أن ينعقد على أن «التجديد» هو طوق النجاة لهذه الأمة من «التخلف الموروث»، الذي يشل فعالياتها بخرافات عصور الانحطاط وأساطيرها وشعوذاتها... وهو، أيضاً، طوق النجاة من «التغريب»، الذي جاءت به الحضارة الغربية العنصرية العدوانية، ليمثل بالنسبة لنا الاستلاب الذي يصيب شخصيتنا القومية بالمسخ والنسخ والتشويه!.

وعلى ضرورة «العدل»، أيضاً، كاد أن ينعقد الاجماع!...
فهو السبيل إلى تحرير الأمة من المظالم التي شلت الكثير من فاعلياتها، وأثقلت خطوها على درب التحرر والتقدم والانطلاق!..

ومن هنا تأتي الأهمية الخاصة لهذا الكتاب عن عمر بن عبد العزيز «عندما يتناوله، لا كما تناوله الكثيرون: عبداً من عباد الله الصالحين؟!» وإنما بالمنهج الذي يضع بين يدي القارىء والباحث المعاني الحقيقية «للصلاح» و«التقوى».. والتي لم تقف عند «النسك» و«الصلاة» و«الصيام».. وإنما كانت، بالدرجة الأولى: «تجديدا» لحياة الأمة، «بالعدل» - الذي يسبح به المسلمون، إسماً من أسماء الله - والذي طال شوق الأمة لأن تراه معياراً لحياتها، يوضع في الممارسة والتطبيق!..

* * *

لهذه الغاية كتبنا هذا الكتاب... ولها نقدم طبعته الثالثة، بعد أن نفدت طبعته الثانية بُعَيْد صدورها بوقت وجيز!..

والله من وراء القصد.. وهو ولي التوفيق.

دكتور محمد عمارة

جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ
فبراير (شباط) سنة ١٩٨٥ م

مقدّمة الطبعة الثانية

على امتداد قرون تاريخنا العربي الاسلامي كان عمر بن عبد العزيز شهاباً لامعاً ومضيئاً في الظلمات!.. وفي تراث المذاهب والتيارات الفكرية العربية الاسلامية تعددت الصفحات التي كتبت عن حياة هذا الشهاب الانساني المنير!.. وفي مكتبتنا العربية المعاصرة عشرات من الكتب التي ألفت عن عمر بن عبد العزيز!..

ومع ذلك.. فلقد ظلت الصورة الشائعة عنه لدى عامة المثقفين وجمهور العامة هي صورة: الرجل الصالح، الذي جعلته تقواه يهرب من الدنيا إلى الآخرة، ومن الأرض إلى السماء، والذي دعاه الصلاح والتبتل إلى الابتعاد عن سلوك الناس والاقتراب من نهج الملائكة المقربين!.. وخلف هذه

الصورة توارت قسمة من أهم القسمات التي ميزت الحياة والسلوك لهذا الرجل الجليل.. توارت قسمة الثورة الاجتماعية التي صنعها عمر بن عبد العزيز، والتي كانت التجسيد الأول والحقيقي لمعنى الصلاح والتقوى والتبتل الذي تميز به هذا الثائر القديس!..

فتقوى عمر بن عبد العزيز وصلاحه وتبتله لم يجعله يهرب من الدنيا إلى الآخرة، ومن الأرض إلى السماء، ومن سلوك الناس إلى نهج الملائكة المقربين بل جعله:

● الثائر الذي يغير الأرض، بالعدل، حتى ترضى عنه السماء!..

● والتقيّ الذي تعني التقوى عنده: الحس المرهف الذي يجعله يحمل، قبل غيره وأكثر من غيره، هموم الناس!..

● والعابد الذي يعبد الله بارجاع الحقوق لأصحابها، ورد المظالم إلى أهلها، بعد انتزاعها من غاصبيها، على حين كان آخرون يعبدون ربهم بإطالة اللحى والمسابح والركوع والسجود!..

ولإبراز هذه القسمة التي توارت - إن لم تكن طمست - صدر هذا الكتاب، الذي قدمنا طبعته الأولى إلى القراء في سبتمبر ١٩٧٨ م.

* * *

ويوم صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب كانت عشرات الكتب المؤلفة عن عمر بن عبد العزيز في متناول القراء، تحفل بها المكتبات، بل «والأرصفة»!.. بل لا نغالي إذا قلنا أن في كل بيت، بمصر، كتاب عن عمر بن عبد العزيز، فالكتب عنه هي بعض من «مقررات» وزارة التربية والتعليم على تلاميذ مدارسها!.. ومع ذلك فلقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب - [أحد عشر ألف نسخة] - في أسبوع؟!.. ونفدت جميعها في مصر، دون تصدير نسخة واحدة منها؟!..

فماذا يعني ذلك؟!.. إنه يعني:

● شهادة نضج للقارىء العربي الذي لم ينجح «كتبة» الشرائح الاجتماعية الطفيلية في تزييف وعيه على النحو الذي يريدون وإلى المدى الذي يبغون!

● ودليلاً على تعطش الانسان العربي إلى «العدل»، عندما يقبل على صفحات تراثه التي أشرقت بنوره كي يتزود بها في صراعه ضد الظلم والجور اللذين يكبلان منه الطاقات والملكات!..

● وشاهداً على قوة الحق وسلطان الحقيقة، عندما يتجسدان في الكلمة الصادقة المهداة إلى الناس!..

● وبرهاناً ساطعاً وقاطعاً على أن إنساننا المعاصر يعي، أكثر من الأدعياء، معنى «التراث»، وأي الصفحات يريد من هذا

التراث!.. فهو يريده: طاقات خلاقة ومبدعة، تسهم في تحطيم قيوده، وتدفع مسيرته إلى الأمام، وتعينه على صنع مستقبله المشرق، ومجتمعه العادل، وتوحيد أمته ذات الحضارة المتميزة والتراث الغني العريق!.. ولا يريده قيوداً تثقل الخطا، ولا أكفانا لموتى السلف يعيد نشرها «موتى» لا يزالون «يعيشون»؟!..

نعم.. ذلك ما يعنيه نفاد كتابنا هذا عن [عمر بن عبد العزيز] في ذلك الزمن القياسي.. مع ازدحام المكتبة العربية بعشرات الكتب عن ذلك الخليفة العظيم..

ولما كان واجبا علينا أن نحيي ونشكر القارىء العربي الجاد، الذي صمد ويصمد أمام المؤامرة الزاحفة لتزييف وعيه بماضيه وحاضره ومستقبله، فنحن لا نملك إلا أن نجسد تحيتنا وشكرنا في صورة هذه الطبعة الثانية من هذا الكتاب نقدمها للقارىء العربي والمسلم على الأرض العربية وفي عالم الاسلام..

مع الرجاء والدعاء أن يمنحنا الله التوفيق لمزيد من كلمات الحق نقولها في مواجهة السلاطين الجائرين!

دكتور محمد عمارة

القاهرة: يوليو ١٩٧٩ م

بطاقة حياة

[كان همّه بالناس أشد من همّه بنفسه!.. ومازال يرد المظالم منذ يوم استُخلِف إلى يوم مات؟!...]

نعم . . إنه أمير من أمراء بني أمية ـ أبو حفص، عمر بن عبد العزيز (٦١ ـ ١٠١ هـ ٦٨١ ـ ٧٢٠ م) . . . وإذا كان أبوه لم يجلس على عرش خلافة الدولة، إلا أنه قد تولى الامارة. والولاية بمصر، وعلى عرش الخلافة جلس أخوه عبد الملك بن مروان . .

ولكن هذا الأمير الشاب الذي يحمل أصالة الفرع الأموي من قريش عبر أبيه: عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ـ قد حملت أصوله النسبية والعائلية إلى بني أمية نسباً جديداً وخلقاً جديداً، فأمه هي: أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب!

وهو لم ينشأ، كغيره من فتيان بني أمية وأمرائها، في الشام، حيث عصبية الدولة الأموية وولاؤها الطاغي وسلطانها الذي لا ينازع، وانما ولد ونشأ في مدينة الرسول عليه الصلاة

والسلام، حيث حركات المعارضة وتيارات السخط، الظاهرة أو الخفية، لحكم بني أمية وما أحدثوا في الحياة الاسلامية من مظالم وتغييرات.. وحيث يستطيع المرء، إذا ما صفت رؤيته وخلصت نواياه، أن يبصر الجانب الأخر من صورة الدولة والمجتمع، الصورة المقابلة والمناقضة، لما تتزين به صورة الدولة وعاصمتها وحاشيتها من ترف وثراء وعطاء وانعامات..

نشأ عمر بن عبد العزيز بالمدينة، أميراً من أمراء الدولة، يستمتع بما توفره الامارة لمثله من رفاهية وميزات.. ولكن المناخ العلمي لمدينة الرسول قد أتاح له أن يسلك درب العلم، فارتقى مدارجه حتى أصبح، وهو شاب، واحداً من علماء الاجتهاد، حتى لقد وصفه ميمون بن مهران بأنه «كان معلم العلماء!»[1].

وفي الخامسة والعشرين من عمره، على عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ ـ ٧٠٥ ـ ٧١٥ م) تولى عمر بن عبد العزيز امارة المدينة ـ (ربيع الأول سنة ٨٧ هـ فبراير سنة ٧٠٦ م) ـ فبدأ فيها تجاربه الأولى في السياسة والحكم، وخبر بها ثقل المسؤولية التي لا بد أن ينهض بها المصلح أو الثائر حيال ما تراكم على الحياة الاسلامية من مظالم وانحرافات وتجاوزات..

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧١. طبعة دار التحرير: القاهرة.

وأدرك الوالي عمر بن عبد العزيز أن التحول الأساسي الذي أحدثته الدولة الأموية منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ ٦٦١ - ٦٨٠ م) فقلبت به نظام الحكم الاسلامي الذي أسسه الخلفاء الراشدون، قد تمثل في الانقلاب على فلسفة الحكم، فبدلاً من الشورى والاختيار، أصبح ملكاً وراثياً عضوضاً، الأمر الذي حرم الأمة من فرص الحرية في التغيير، ومن ثم حرمها إمكانية الاصلاح في ميادين الثروة والاقتصاد، فكانت المظالم التي أصبح الناس يئنون تحت نيرها، وتنفجر ضد بشاعتها، بين الحين والحين، التمردات والانتفاضات والثورات.. أدرك عمر ذلك، فدعا عشرة من فقهاء المدينة وقادة الرأي فيها، وهم: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبيد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد.. دعاهم فكوّن منهم مجلس شورى للولاية، وحدد لهم مهام مجلسهم هذا: معاونة الوالي على الحق، والتنبيه على المظالم والتعديات، والحيلولة دون الوالي ودون الانفراد بالقرار.. «ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم»[1].

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٤٢٧، ٤٢٨، طبعة دار المعارف، القاهرة.

وفي ظل ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة عادت مدينة الرسول، عليه الصلاة والسلام، لتصبح، كما كانت من قبل، حرما آمنا للمسلمين ـ فنزح إليها الرافضون لمظالم الحجاج بن يوسف (٤٠ ـ ٩٥ هـ ـ ٦٦٠ ـ ٧١٤ م) في العراق، ووجدوا فيها المناخ الملائم لفكرهم الثائر ضد العسف والجور اللذين تجسدا في الحجاج.. كما وجدوا عند أميرها العقل الذي يتفهم والقلب الذي يتألم والفكر الذي يتعاطف مع أحلامهم في الحرية والعدل بين الناس.. حتى لقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بن عبد الملك يشكو إليه ما يصنع الحجاج بأهل العراق.. وعلم الحجاج بذلك، فزادت كراهيته لعمر، وكتب إلى الخليفة يحذره من مغبة اجتماع الثوار بالمدينة، في ظل ولاية عمر بن عبد العزيز، وقال: «إن من قبلي من مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن، وضعف من الدولة تخشى عواقبه!..» فاستجاب الخليفة لرغبة الحجاج، وطلب منه أن يرشح ولاة جدداً لكل من مكة والمدينة، فرشح عثمان بن حيان للمدينة، وخالد بن عبد الله لمكة.. ومن ثم عزل الوالي عمر بن عبد العزيز!.. فغادر المدينة منفياً، إلى حيث أقام في قرية السويداء، من قرى حوران، قرب دمشق، على الطريق بينها وبين المدينة.. وعندما كان يغادر مدينة الرسول، التفت إلى مولاه «مزاحم» وواساه، في أسى، عندما قال: أتخاف أن

تكون ممن نفته طيبة؟![1].

لكن الفتى الصالح والأمير الطامح إلى عدل الاسلام لم يوقفه العزل ولا النفي عن توجيه النقد للظلم البادي والمظالم التي يئن منها الناس، فأخذ يشكو إلى ربه ولاة الظلم والجور الذين اجتمعوا على حكم المسلمين في مختلف الأمصار والأقاليم: «الحجاج بالعراق، والوليد بالشام، وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة!.. اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً، فأرح الناس؟!..»[2]

وحتى بعد وفاة الوليد بن عبد الملك، وخلافة سليمان بن عبد الله (٩٦ - ٩٩ هـ ٧١٥ - ٧١٧ م) - الذي قرب عمر بن عبد العزيز إلى ما يشبه منصب الوزارة - لم يتوقف نقده للمظالم التي سادت حياة الدولة والناس.. وعندما احتج والي مصر أسامة بن زيد بأن هذه المظالم هي تنفيذ لسياسة الخليفة، قال له عمر بن عبد العزيز: ان الخليفة لن يغني عنك من الله شيئاً؟![3].. فلقد أصبحت التقوى لدى الرجل ضميراً مرهفاً

---

(١) المصدر السابق. ج ٦ ص ٤٨١، ٤٨٢ (وطيبة هي المدينة.. والعبارة تشير إلى الحديث النبوي: «إن المدينة لتنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد!».

(٢) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) جـ ٤ ص ٢٢٢ طبعة القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ.

(٣) الجهشياري (الوزراء والكتاب) ص ٥١، ٥٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

وحساساً، يستشعر الألم الحاد والعنيف لأدنى انحراف يصيب الفرد أو الدولة أو الأمة عن صراط الاسلام المستقيم وعدله الذي تمثل في حكم الرسول، عليه الصلاة والسلام، ودولة الخلفاء الراشدين . . حتى لقد أصبح، وسط أمراء بني أمية، الضمير الذي يتغص عليهم الاستمتاع بالملذات والشهوات، والنفير الذي يزعجهم كي يستيقظوا من الغفلة التي فيها يعيشون . . وعندما سأله الخليفة سليمان بن عبد الملك، في لحظة افتخار وزهو بما هو فيه من ملك عظيم ونعيم مقيم، فقال:

ـ يا عمر، كيف ترى ما نحن فيه؟ . . (كان الجواب):

ـ سرور، لولا أنه غرور! وحياة، لولا أنه موت! وملك لولا أنه هلك! وحسن، لولا أنه حزن! ونعيم، لولا أنه عذاب أليم؟!(1).

ولم تكن هذه التقوى عند عمر بن عبد العزيز: صلاة أكثر وصوماً أدوم ومسبحة أطول، وادارة ظهر للدنيا ومشكلات الحياة، بل كانت أول ما كانت، جهاداً في سبيل ازالة الظلم، ونزع الثروات والثراء من أيدي المغتصبين وردها إلى الأمة . . كانت ـ في إيجاز: حمل هموم الناس، والجهاد كي يسود العدل بين الناس . .

---

(1) المسعودي (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٠ طبعة دار التحرير. القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

فولاة المدينة، قبل عهد عمر بن عبد العزيز، وكثير منهم الذين اشتهروا بالظلم والجور، كانوا ينفقون، من أموال «العشر والصدقة»، على ايقاد «المجامر» في مسجد الرسول كي يعبق بالروائح الزكية، بل كانوا يطيبون هذا المسجد بالطيب!.. فلما تولى عمر الحكم منع ذلك، بل وطلب «محو آثار ذلك الطيب من المسجد!»[1].

وعلى حين كان البعض يكتفي من الصلاح والتقوى بالمظاهر والأشكال، فان عمر لم يكن بين عينيه أثر للسجود ولا علامة له!..[2]..

ولقد تعدت رحمته ورأفته نطاق الانسان، فشملت الحيوان، حتى لقد نهى عمال البريد عن أن يضعوا في طرف السوط الذي ينخسون به الدابة حديداً؟!.. ومنع أصحاب الدواب من إلجامها باللجم الثقال؟![3].. وفي ذات الوقت بلغت شدته في الحق وجبروته في العدل إلى الحد الذي هدد فيه أمراء أسرته بالذبح إن هم حالوا بينه وبين الثورة التي أعلنها والتي انتزع بها الأموال من أيديهم فردها على الفقراء، فقال: «..إن

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٩٥.

(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٩٨.

(٣) أبو يوسف (الخراج) ص ١٨٦. طبعة المطبعة السلفية. القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ.

لله في بني مروان ذبحا، وأيم الله لئن كان ذلك الذبح على يدي!»[1].

لم تكن تقواه صلاة أكثر ولا صياماً أطول ولا مسبحة مدلاة.. وكما قالت زوجته فاطمة بنت عبد الملك، عندما ذهب إليها الفقهاء - بعد موته - معزين، وسائلين عن أسرار تقوى الخليفة الصالح، فقالوا لها:

- اخبرينا عنه، فإن أعلم الناس بالرجل أهله.. (قالت فاطمة):

- والله ما كان بأكثركم صلاة ولا صياماً. ولكن، والله ما رأيت عبداً أشد خوفاً لله من عمر، كان همه بالناس أشد من أمر همه بنفسه.. قد فرغ بدنه ونفسه للناس، يقعد لحوائجهم يومه، فاذا أمسى وعليه بقية من حوائجهم وصله بليلته![2]..

بل لقد بلغت به التقوى، التي تجسدت في إحساسه المرهف بالمسؤولية الكبرى عن فقراء الأمة وعامتها وواجبه حيال تحقيق العدل لهم إلى الحد الذي أفسدت لذة زوجته بحياتها الزوجية وذهبت بما تستمتع به المرأة عندما تخلو، كزوجة، إلى زوجها، حتى لقد تمنت على ربها أن لو بعدت الخلافة والامارة عن

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٣.

(٢) أبو يوسف (الخراج) ص ١٦، ١٧.

حياتها الزوجية بعد ما بين المشرقين.. قالت هذه الزوجة الصابرة عن زوجها الصالح: «...ووالله، إن كان عمر ليكون في المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل مع أهله، فيذكر الشيء من أمر الله فيضطرب كما يضطرب العصفور قد وقع في الماء، ثم يرتفع بكاؤه حتى أطرح اللحاف عني وعنه رحمة له؟!... ووالله لوددت لو كان بيننا وبين هذه الامارة بعد ما بين المشرقين!».. وعندما كانت تسأله السبب كان يقول: «لقد توليت أمر هذه الأمة، أسودها وأحمرها، فذكرت الغريب القانع الضائع، والفقير المحتاج، والأسير المقهور، وأشباههم في أطراف الأرض.. فخفت على نفسي حساب الله عن هؤلاء الناس!»[1].

لقد حولته التقوى إلى ضمير للأمة.. وزادت روح الاسلام وتعاليمه من حساسية هذا الضمير!..

* * *

وكان واضحاً، وطبيعياً، أن أميراً، هذا هو حاله وذلك هو تكوينه، لا بد وأن يكون غريباً عن الواقع الذي يلهو فيه ويستمتع به الآخرون من أمراء بني أمية.. وكان مستبعداً كذلك أن يعهد إلى مثله بتولي منصب الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك.. ولكن مشورة صالحة من عالم صالح هو رجاء بن

---

(١) المصدر السابق. ص ١٧.

حيوة (١١٢ هـ ـ ٧٣٠ م) أقنعت سليمان بن عبد الملك بأن يعهد بالخلافة من بعده لعمر بن عبد العزيز، فله من صلاحه وتقواه، ومن خبرته في الامارة والوزارة ما يجعل الأمل كبيراً في أن يصلح الله به الأحوال، وكان مرض الخليفة فرصة مواتية لاقتناعه، فلقد رأى في ذلك عملاً صالحاً يتقرب به إلى الله وهو يغادر الدنيا ويستقبل الحساب والجزاء[1].. ولكنه فكر، وأيقن أن قراراً كهذا لا بد أن يلقى معارضة الأمراء الآخرين، فتحايل للتخفيف من معارضتهم بأن جعل الخلافة بعده لعمر بن عبد العزيز، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك.. فلقد قال: «والله ان وليت عمر، ولم أول أحداً سواه، لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده... فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضون به!»[2].. وكتب عهده هذا، وختمه، وطلب من الأمراء أن يبايعوا بالخلافة لمن عهد إليه، دون أن يعلموا من هو المعهود إليه بالخلافة!..

---

(١) كان السبب الأول في تقريب عمر بن عبد العزيز إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك هو عداء الخليفة السابق الوليد بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز، ولما كان الوليد قد هم بعزل سليمان وإزاحته عن منصب الخلافة، ثم لم يتمكن، فلقد قرب سليمان كل المبعدين في عهد الوليد، ومنهم عمر بن عبد العزيز، فقارب أن يكون وزيراً لسليمان.. ومهد ذلك طريقه لولاية العهد من بعده!..

(٢) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٠.

وهكذا تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ـ (في ٢١ صفر سنة ٩٩ هـ ٣ اكتوبر سنة ٧١٧ م) ـ فوجد الرجل الصالح، والأمير الطامح إلى العدل، وجد نفسه في قمة السلطة التي طالما وصفها بالظلم، ووجه لها النقد، وتحدث عن ضرورة التحول بها إلى طريق الحق والعدل بين الناس..

فماذا فعل؟... هل طوعته السلطة الظالمة؟ أم ثار هو عليها، ومن داخلها، فهدم صرحها الشامخ، وأقام البديل العادل الذي طالما حلم به مع المعارضين والمصلحين والثوار؟؟

ذلك هو الموضوع!..

لغة جديدة

[لستُ بقاضٍ، ولكني منفذ!.. ولستُ بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً؟!..

الا وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ، ولكن الإمام الظالم هو العاصي؟!..]

عمر بن عبد العزيز

منذ أن أعلن اسم الخليفة الجديد، وعرف العام والخاص أنه عمر بن عبد العزيز، أيقن جهاز الدولة الأموية، وخاصة الأمراء والولاة، أنهم بإزاء تغيير هو أشبه ما يكون بالثورة، أو ـ في أقل الأحوال ـ الانقلاب!.. ولقد فزع الأمير الصغير هشام بن عبد الملك ـ وكان طامعاً في الخلافة ـ وصاح: لا نبايع عمر أبداً؟! ولكنهم اضطروه إلى تأكيد بيعته التي بايعها قبل وفاة سليمان، عندما بايع مع الآخرين لمن حدده سليمان في الكتاب المختوم..

ولم يشأ عمر أن يدع لجهاز الدولة هذا فرصة المبادرة في الحركة ضد ما يتوقعون منه من تغييرات، فاغتنم الفرصة وامتلك هو زمام المبادرة بمجرد أن فرغ من الصلاة على جثمان الخليفة السابق وواري جسده التراب.. فأمام قبر الخليفة السابق أعلن عزمه على إجراء تغييرات جذرية في جهاز الدولة، بل وشرع فأصدر عدداً من قرارات التغيير لعدد من الولاة على الأقاليم والأمصار، عزل عامل مصر: أسامة بن

زيد، وعزل يزيد بن أسلم!

ولقد جاءوا إليه بموكب ركوب الخليفة: البرار :ـ (دواب الحمل الثقيل) ـ والخيل والبغال،ولكل دابة منهم سائس خاص[1]، كي يركب ويعود بالموكب المعتاد، فرفض استخدام هذه الدواب والعودة بهذا الموكب، وقال لهم: دابتي أوفق لي؟!.. وبعد أن عاد على دابته، وسط الدهشة والتساؤل، دخل القصر، قصر الخلافة، فوجد الفرش التي كانت تبسط في مجلس الخليفة في انتظاره، فرفض أن يجلس عليها.. ثم غادر القصر إلى المسجد، فصعد المنبر، وخطب في الناس، فسمعوا منه كلاماً لم يسمعوه منذ انتهت دولة الخلفاء الراشدين.. فمنذ قامت الدولة الأموية وأسماع الناس قد ألفت خطب الخلفاء التي تطلب السمع والطاعة من الناس للخليفة صاحب القول الفصل والقرار الواجب النفاذ.. أما عمر فإنه يعلن في الناس أنه ليس أكثر من منفذ للشريعة، وأن طاعته غير واجبة إن هو عصى الله أو خالف شريعته، وأن الإمام إذا ظلم، فخرج الناس عليه وقاوموه أو هربوا من جوره، فالظالم هو الإمام وليس الذين خرجوا عليه وقاوموه!.. خطب عمر فقال:

«أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، إلّا أن ما أحل الله حلال إلى يوم

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥١.

القيامة، وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة، إلا أني لست بقاض ولكني منفذ، ألا اني لست بمبتدع ولكني متبع، الا انه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله، ألا اني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً[1] ألا ان الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص، ولكن الإمام الظالم هو العاصي!...»[2].

وكانت العادة قد جرت، في المسجد، أن يجلس الأمراء وأركان الدولة والخاصة إلى جوار المنبر، ثم يتأخر العامة إلى ما وراء فراغ يترك كي يفصل بين العامة والخاصة في بيت الله!.. وأبصر الخليفة الجديد ذلك من فوق المنبر، فأشار إلى العامة أن تقدموا، فزحفوا حتى امتلأ بهم الفراغ، واختلطت مجالس الناس!..[3]

وكان يزيد بن المهلب والياً على خراسان. وكانت في ذمته للدولة أموال اعترف بها، غنمها من الفتوحات، وقدرها هو في مراسلاته إلى سليمان بن عبد الملك بستة ملايين دينار، فلما مات سليمان عاد يزيد بن المهلب فأنكر اقراره، وزعم أن الأمر لم يخرج عن حديث المفاخرة بين وال وخليفته، إذ كانا أصدقاء، فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى يزيد كتاباً قال فيه:

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٥.

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٦.

وأما بعد، فإن سليمان كان عبداً من عبيد الله، أنعم الله عليه، ثم قبضه، واستخلفني. . وان الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس عليَّ بهين، ولو كانت رغبتي في إتخاذ ازواج واعتقاد - (جمع) - أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه. وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً، ومسألة غليظة: إلا ما عافى الله ورحم!..».

وعندما قرأ يزيد بن المهلب كتاب الخليفة الجديد، أدرك عمق التغير - بل الانقلاب - الذي حدث في قمة السلطة بالدولة.. فليست هذه هي لغة الخلفاء الذين خدمهم، ومن قبله خدمهم أبوه.. وأيقن أن لا سبيل إلى الوفاق أو الاتفاق بينه وبين الخليفة الجديد.. فقال لأصحابه:

- لست من عمال عمر بن عبد العزيز!.. (فلما سألوه):

- ولم؟!.. - (كان جوابه): -

- ليس هذا كلام من مضى من أهل بيته، وليس يريد أن يسلك مسلكهم؟!..[1]

فكانت عبارته هذه التجسيد لما حدث في قمة السلطة من تغيير عميق الجذور!..

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٦، ٥٦٧.

ولقد صدر قرار عمر بعزل يزيد بن المهلب عن ولاية خراسان. . ولما امتنع عن أداء ما في ذمته لبيت المال من أموال، وضعه عمر في السجن ـ رغم ما له من عصبية ـ وقال له: «ما أجد في أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأد ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها. .» وتحدث إلى مستشاريه عن يزيد وعصبته فقال: «هؤلاء جبابرة، وأنا لا أحب مثلهم؟!»[1].

ثم شرع يتدبر أمر التغيير الشامل الذي أزمع على إجرائه في البنية الادارية والاجتماعية والاقتصادية للدولة والمجتمع . . وبعبارة أخرى : شرع يتدبر أمر الثورة التي قرر القيام بها من موقعه ، في قمة السلطة ، ومن داخل جهاز الدولة ، الذي قرر تغييره ، ثم استخدامه فيما أزمع على إجرائه من تغييرات ! . . وقضى شهرين في التفكير والتدبير[2] .

---

(١) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٥٦، ٥٥٧.

(٢) أبو يوسف (الخراج) ص ١٦.

السلام العام

[إن الذين خرجوا - [ثاروا] - غضباً لله ولنبيه، ليسوا أولى بذلك مني!... فلنتناظر، فإن كان الحق بأيدينا دخلوا فيما دخل فيه الناس، وإلا نظرنا في أمرنا!.. فإني لن أكون ظهيراً للمجرمين؟!..]

عمر بن عبد العزيز

قد يدهش القارىء، بل والباحث، في المصادر الأولى لتاريخنا وتراثنا من ذلك التقدير والاجلال اللذين حظيت بهما شخصية عمر بن عبد العزيز من لدن التيارات الفكرية المختلفة والمتناقضة والمتصارعة في هذا التاريخ وذلك التراث. .

* فهو خليفة أموي . . ومع ذلك أحبه الهاشميون، وتعلق به آل البيت، ومدحه شعراء الشيعة وانشأوا فيه المراثي عندما مات!؟ . .

* وهو خليفة أموي . . ومع ذلك اقترب منه ثوار الخوارج، ووثقوا به، وهادنوه . . بل ان المرء ليكاد يشعر أن منهم من يعده واحداً من الذين تمذهبوا بمذهبهم، أو اقتربوا من ذلك إلى حد كبير؟! . .

* وهو خليفة أموي، تولى الخلافة بالعهد إليه من الخليفة السابق، أي بالميراث وليس بالشورى والاختيار العام . . ومع ذلك اعترف المعتزلة ـ وهم من تيارات المعارضة الثورية للدولة

الأموية ـ بـه إمامـاً، وأثنوا عليـه ثناء مستطاباً، وعـاونوه، وانخرطوا في جهاز دولته.. بـل عدوه واحـداً من رجالات فرقتهم وذكروه ضمن الطبقة العاشرة من طبقات ـ (اجيال) ـ أعلامهم!..[1].

* والفقهاء، من أهل السنة، يتخذونه واحداً من أئمتهم.. ومع ذلك نرى المتصوفة يحلونه مكاناً علياً بين أسلافهم الذين سبقوا إلى الطريق؟!..

هكذا تحلقت التيارات الفكـرية المختلفة، بل المتناقضة والمتصارعة، من حول عمر بن عبد العزيز، بل وادعاه كل تيار من هذه التيارات!..

ورغم أن الحق واحد، فإن الكثير من هذا الحق قد كان ولا يزال مع كل هذه التيارات!..

فعمر بن عبد العـزيز، عنـدما تولى الخـلافة، كـانت الصراعات السياسية والفكرية تمزق نسيج الدولة وتقطع روابط المجتمع، وكانت سجون الدولة، فضلاً عن مقابرها، تستقبل وفود الذين «جرمتهم» الدولة سياسياً وفكرياً، فغير الصراعات

---

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٥. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.

القبلية التي أذكتها الدولة لتستعين بتناقضاتها، والنعرات العنصرية بين العرب والموالي التي أشعلت نارها، كانت هناك تيارات المعارضة الثائرة ضد بني أمية ودولتهم وما أحدثوا في الحياة الاسلامية من أحداث وتغييرات.. فالخوارج ثائرون، والشيعة يعارضون، والمعتزلة يعارضون ويدعمون الثورة ويشتركون في أحداثها..

ولقد سبق لعمر بن عبد العزيز أن تعاطف مع الثائرين على تجبر الحجاج بن يوسف في العراق، وجعل من المدينة، تحت ولايته، مثابة وأمناً لهؤلاء الثوار.. كما أنه هو الذي وصف آل المهلب بن أبي صفرة ـ وهم قتلة الخوارج وقادة جيوش الدولة التي تصدت لثوراتهم ـ بأنهم «جبابرة» وأعلن أنه لا يحبهم!.. ثم ها هو يعزل يزيد بن المهلب، ويضعه في السجن..

وهكذا وجد عمر بن عبد العزيز نفسه ـ بعد أن حكمته أهدافه في الثورة على النظام القائم والوضع القديم ـ وجد نفسه على الطريق الذي حتم عليه التهادن، بل والتعاون مع التيارات المعارضة والثورية، ما دام هو ذاته قد استهدف ما سعوا ويسعون لتحقيقه من أهداف: إزالة الجور، ورد المظالم، والعدل في اقتسام الثروة بين الناس!.. إنه ثائر على فلسفة الحكم الأموي، طامح لتغيير النمط الاجتماعي والتنظيم الاقتصادي الذي استقرت عليه الدولة منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، فطبيعي، بل وحتمي، أن يتعاون مع المعارضين لجهاز

الدولة القديم وبتحالف مع الثائرين على الجور والمظالم التي رعاها الخلفاء الأمويون السابقون..

هكذا بدأ، وأعلن عمر بن عبد العزيز ما يمكن أن نسميه «السلام العام» الذي شمل الجهاز الجديد لدولته الجديدة مع مختلف فصائل المعارضة وتيارات الثورة ومدارس الداعين إلى الاصلاح..

ولقد بدأ عمر مرحلة «السلام العام» هذه بإلغاء مبدأ «التجريم» بسبب الخلاف في الرأي والأهداف.. فلم تعد الدولة تعاقب على الرأي، ولا على النشاط السياسي.. على حين اشتد عقابها لمن عدا أصحاب الرأي والسياسة من المجرمين[1]، وذلك على عكس ما كان عليه الحال قبل إعلان «السلام العام»..

مع المعتزلة:

قبل خلافة عمر بن عبد العزيز - (سنة ٩٩ هـ) - كانت المعتزلة - وهم أبرز تيارات (أهل العدل والتوحيد) - فصيلة من

---

(١) فلهوزن (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٩٩. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

قصائل المعارضة للدولة الأموية، يدينون مظالمها، وقبل كل شيء يدينون تحويل نظام الحكم من الشورى والاختيار إلى الملك الوراثي المضوض، وهم قد حكموا «بفسق» معاوية بن أبي سفيان، بل قال بعضهم بكفره، ثم تبلورت ادانتهم لبني امية في حكمهم عليهم بأنهم «فسقة» مرتكبون للذنوب الكبائر، وأنهم، لذلك، وإن لم يكونوا كافرين، إلا أنهم غير مؤمنين، وأنصارهم في منزلة بين المنزلتين، وهم مخلدون في النار!.. هكذا كانت معارضة المعتزلة للدولة الأموية قبل خلافة عمر بن عبد العزيز.. بل لقد بلغت هذه المعارضة درجة الاشتراك في الثورة والتصدي المسلح لتغيير النظام. فاسهموا في الثورة التي قادها عبد الرحمن بن الأشعث (٨٥ هـ ٧٠٤ م) ضد الحجاج بن يوسف، بالعراق، على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ ـ ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م). ومن أعلامهم الذين أسهموا في هذه الثورة: معبد الجهني، والجعد بن درهم، وسعيد بن أبي الحسن[1].. الخ.. الخ.. وقصة معارضة الحسن البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ ـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) ـ وهو أبرز أئمة أهل العدل والتوحيد ـ لحكم الحجاج بن يوسف وبني أمية شهيرة وطويلة، وهي تؤكد وقوف المعتزلة في صف

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٠ و(تاريخ الطبري) ج ٨ ص ١٥١، ١٥٢، وجمال الدين القاسمي (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٥٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

المعارضة، والثورة، ضد الأمويين[1]..

ولقد سبقت اشارتنا إلى تعاطف عمر بن عبد العزيز - أيام ولايته على المدينة، قبل خلافته - مع الثائرين على الحجاج، وكيف جعل من ولايته مثابة للثائرين وأمنا.. فلما أن ولي الخلافة كانت المعتزلة من أبرز فصائل المعارضة التي تعاون معها واستعان بها على انجاز الثورة التي قام بها من قمة السلطة في الدولة..

والأدلة التي تحكي علاقة عمر بن عبد العزيز بالمعتزلة خاصة، وبأهل العدل والتوحيد عامة، والتي ترسم هذا الجانب غير المعروف من حياة هذا الخليفة الصالح، هذه الأدلة كثيرة وأكيدة... ومنها، على سبيل المثال:

١ - يذكر المعتزلة - كما سبقت اشارتنا - عمر بن عبد العزيز في عداد أئمتهم وأعلامهم، ويوردون ذكره في الطبقة - (الجيل) - العاشرة من طبقات أعلامهم[2].

٢ - ولقد بلغ توثق العلاقة بين عمر بن عبد العزيز وبين الحسن البصري، قبل الخلافة وبعدها، إلى الحد الذي كان

---

(١) أنظر كتابنا (المعتزلة والثورة) ص ٥٠ - ٥٨ طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م.

(٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٥.

الحسن البصري يكتب فيه إلى عمر فيبدأ بذكر اسمه قبل اسم عمر! أي يبدأ كتابه بعبارة: «من الحسن بن أبي الحسن إلى عمر بن عبد العزيز!».. ولما ولي عمر الخلافة نصح البعض الحسن البصري أن يغير من ترتيب الأسماء في العبارة، فيقدم اسم الخليفة على اسمه، لأن الرجل - كما قال هذا البعض - قد ولي وتغير!»، ولكن الحسن أنكر ذلك، وقال: «لو علمت أن غير ذلك أحب إليه لاتبعت محبته!».. وظلّ يكتب إليه مقدماً اسمه على اسم أمير المؤمنين[1]!..

ولقد كانت ادانة الحسن البصري للدولة الأموية تتمثل، ضمن ما تتمثل، في الامتناع عن ولاية وظائفها، وخاصة القضاء، ثم حدث أن قبل ولاية قضاء البصرة في خلافة عمر بن عبد العزيز[2]، فكان دليلاً على تغير موقف أهل العدل والتوحيد من الدولة، وتغير موقفها منهم، والعلاقة الجديدة بينهم وبين جهازها الجديد..

ويأتي في هذا السياق تولي محمد بن سويد الفهري - وهو من المعتزلة[3] - امارة دمشق وهي العاصمة، من قبل عمر بن عبد العزيز..

---

(١) (الأغاني) للاصفهاني. ج ٩ ص ٣٣٨٦. تحقيق ابراهيم الابياري. طبعة دار الشعب. القاهرة.

(٢) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٤.

(٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٧٠.

٣ ـ ولقد أدى اشتراك المعتزلة ـ قبل خلافة عمر ـ في الثورة ضد الدولة، والمعارضة لها إلى تجريم الدولة لهم، ومن ثم إلى قطع «العطاء» والحقوق عن رجالاتهم، فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز قرر اعادة «العطاء والحقوق» إلى هؤلاء المعارضين والثوار.. أعاد إلى الحسن البصري عطاءه، فقبله.. وأعاد إلى عبد الله بن العلاء بن زبر (١٦٤ هـ) ـ وهو من المعتزلة[١] ـ عطاءه، بل ورد إليه عطاء السنوات السابقة، وبعبارة ابن العلاء: «قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، عصيت سنوات، اني كنت في العصاة، وحرمت عطائي. فرد عليَّ عطائي، وأمر أن يخرج لي ما مضى من السنين[٢]»!

ولقد اشترط بعض أئمة المعتزلة وأهل العدل والتوحيد لقبول العطاء أن يعمم عمر بن عبد العزيز ذلك على كل الذين حرموا عطاءهم فيما سبق من السنوات، حتى لا يكون هناك حرج للخليفة في إعطائه القادة دون العامة.. فقال ـ مثلاً ـ محمد بن سيرين: «إن فعل الخليفة ذلك بأهل البصرة فعلت، وأما غير ذلك فلا»!.. وكان جواب خارجة بن زيد: «إن لي نظراء، فإن عمهم أمير المؤمنين بهذا فعلت، وإن هو خصني به فإني أكره ذلك له»!.. ولقد اعتذر الخليفة بأن المال

---

(١) المصدر السابق. ص ٩٩.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٦.

لا يكفي لإصلاح أخطاء الماضي بالنسبة لكافة المتضررين..
«إن المال لا يسع ذلك، ولو وسعه لفعلت»[1]!

٤ - والعلاقة بين عمر بن عبد العزيز وبين غيلان الدمشقي - وهو قائد المعتزلة في الشام - ودور غيلان في جهاز دولة عمر، دليل على التحام هذه الفصيلة - «الفكرية - السياسية - الثائرة» - بالتجربة الثورية لعمر بن عبد العزيز..

فغيلان قد كتب إلى عمر يحدثه عن رأيهم في الحرية والاختيار والقدرة والمسؤولية التي يثبتونها للانسان، وينفي أن يكون الله، هو الفاعل والمسؤول عن فعل الانسان.. فقال، ضمن ما قال: «.. فهل وجدت، يا عمر، حكيماً يعيب ما صنع؟! أو يصنع ما يعيب؟! أو يعذب على ما قضى؟! أو يقضي ما يعذب عليه؟!.. أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضل عنه؟! أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة؟! ويعذبهم على الطاعة؟! أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم؟! وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب والتكاذب بينهم؟!.. كفى ببيان هذا بياناً، وبالعمى عنه عمى»[2]!..

---

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٥٦، ٢٥٧. وج ٧ ق ١ ص ١٤٧.
(٢) ابن المرتضى (المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل) لوحة ٤٨ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية.

ثم سأل غيلان عمر عن حقيقة مزاعم أهل الشام - بني أمية - حول فكره إزاء هذه القضية، التي هي أصل من الأصول الفكرية الخمسة للمعتزلة؛ فقال له: «إن أهل الشام تزعم أنك تقول في المعاصي أنها بقضاء الله تعالى»؟!.. فجاءه جواب عمر مؤكداً أنه، في هذه القضية، على مذهب المعتزلة، لا مذهب الجبرية من أهل الشام!.. قال لغيلان: «ويحك يا غيلان! أولست تراني أسمي مظالم بني مروان ظلماً[1]»؟!.. إذ لو كان فاعلها هو الله لما اسميتها ظلماً!

* ثم كتب غيلان إلى عمر يدعوه إلى أن يجعل من «إمامته» إمامة الهدى التي دعا اليها القرآن، لا «إمامة» الضلال التي كان عليها أسلافه الأمويون: «.. إعلم، يا عمر، أنك ادركت من الاسلام خلقاً بارياً ورسماً عافياً. وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فانظر أي الإمامين أنت؟! فإنه تعالى يقول: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾[2]. فهذا إمام هدى، ومن أتبعه.. وأما الآخر فقال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون﴾[3]...»[4].

* ولقد اقتربت هذه المكاتبات، التي هي أشبه ما تكون

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣١٥.

(٢) الأنبياء: ٢٦.

(٣) القصص: ٢٨.

(٤) (المنية الأمل) اللوحة ٤٨.

بالمفاوضات بين خليفة عازم على إحداث ثورة من خلال السلطة، وبين قائد تنظيم ثوري خارج جهاز السلطة، اقتربت هذه المكاتبات من مجال اتخاذ القرار، قرار التحام التنظيم الثوري بالخليفة الثائر.. وذلك عندما كتب عمر بن عبد العزيز إلى غيلان يتحدث إليه، شاكياً، عن ثقل المسؤولية وعظم المطامح والآمال مع قلة الأعوان الصادقين الذين يعينون على بلوغ الأهداف.. شكى عمر إلى غيلان «ما وقع فيه مما ابتلي به من أمر المسلمين، وقلة الأعوان على الخير! ويسأله المعاونة له على ما هو فيه، قائلاً: أعني على ما أنا فيه؟!».. فكانت الاستجابة الفورية من غيلان، عندما كتب إلى عمر: «بلغني كتاب أمير المؤمنين، يذكر فيه ما ابتلي به من أمور المسلمين، وقلة الأعوان على الخير، حيث خاف العالم فلم ينطق، وجهل الجاهل فلم يسأل.. يطلب مني المعاونة فيما أنعم الله عليَّ.. نعم، فإني لن أكون ظهيراً للمجرمين»!..

ثم طلب غيلان إلى الخليفة أن يوليه أخطر المهام الثورية: مهمة انتزاع الثروات المغتصبة من الذين اغتصبوها، بما فيها من اقطاعات، وأموال، وتحف ونفائس، وإعادتها إلى بيت مال المسلمين، ملكاً عاماً للأمة جمعاء.. طلب غيلان ذلك فكتب إلى عمر يقول: «ولني بيع الخزائن ورد المظالم»!.. فاستجاب عمر، وولاه ذلك.. فكان يقف بساحات دمشق وميادينها يثير مشاعر الناس ويستنهض طاقاتهم الثورية ضد النظام الذي شرع عمر بن عبد العزيز في تحطيمه، وذلك أثناء عرضه

الثروات المصادرة من أمراء بني أمية للبيع، فينادي عليها ويقول: «تعالوا إلى متاع الخونة!.. تعالوا إلى متاع الظلمة!.. تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته»..

- ثم يتساءل متعجباً: «من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى، وهذا يأكل والناس يموتون من الجوع»؟!

- ويُذكر المؤرخون أن من بين ما باعه غيلان في مصادرات بني أمية: جوارب من الحرير، محلاة «منكلة» بالمعادن النفيسة، بلغ ثمنها ثلاثين ألف درهم[1]!

هكذا التحم المعتزلة الثوار بالخليفة الثائر، فولد جهاز دولته الثوري الذي سعى لانجاز المهام الثورية التي طمح إليها الخليفة عمر ابن عبد العزيز وكل فصائل الثورة ضد مظالم الأمويين...

ومن هنا جاء تقويم المعتزلة، وهم الذين لا يعترفون بالإمامة والخلافة إلا لمن نالها بالشورى والاختيار، جاء تقويمهم لإمامة عمر ابن عبد العزيز تقويماً إيجابياً. فقدموا لها «تكييفاً» فقهياً مؤداه: أن عمر بن عبد العزيز، وإن لم يتول الخلافة بالشورى والاختيار، وإن كان قد تولاها بالعهد من الخليفة

---

(١) المصدر السابق: اللوحة ٤٨. و(الخراج) لأبي يوسف. ص ١١٤.

الذي سبقه، إلا أن عدله وثورته وما أحدث في السلطة والمجتمع من تغير جذري وعميق، يقوم مقام الشورى والاختيار، لأن عدله قد حقق رضاء الناس عنه ورضاهم به، وهذا الرضا هو بمثابة البيعة والاختيار، يقوم مقامهما، وإن يكن قد جاء تالياً لتاريخ التولي والتنصيب.. وعن هذا «التكييف الفقهي» (القانوني) يتحدث إمام المعتزلة عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ ٦٩٩ - ٧٦١ م) فيقول: «إن عمر بن عبد العزيز قد أخذ الخلافة بغير حقها، ولا باستحقاق لها! ثم استحقها بالعدل حين أخذها»[١].. وبعبارة إمام آخر من أئمتهم، هو أبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ ٨٤٩ - ٩١٦ م): «إن عمر بن عبد العزيز كان إماماً، لا بالتفويض المتقدم، ولكن بالرضا المتجدد من أهل الفضل»[٢]!..

وهكذا أصبح عمر بن عبد العزيز، لثوريته وعدله، أول خليفة أموي تعترف المعتزلة بإمامته، والإمام الوحيد الذي صحت، عندهم، إمامته دون أن يتولاها بالشورى والبيعة الحرة والاختيار.. لقد عدوه في عداد الأئمة، والأئمة الثوار، الذين أنكروا المنكر، وتصدوا، بالثورة، لولاة الجور وأئمة

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٥٢.

(٢) القاضي عبد الجبار (المغني في أبواب التوحيد والعدل) ج ٢٠ ق ٢ ص ١٥٠، ط. القاهرة.

الضلالة، كما يقول القاضي عبد الجبار[1].. هذا عن علاقة عمر بن عبد العزيز بالمعتزلة ـ أهل العدل والتوحيد ـ ومكانهم من ثورته وجهاز دولته الثوري، ومن «السلام العام» الذي أعلنه ليشمل فصائل الثورة ودعاة الاصلاح وتيارات المعارضين لمن سبقه من الخلفاء الأمويين.

ومع الخوارج:

وكان الخوارج قد استنوا سنة الثورة المستمرة ضد الدولة منذ حادثة «التحكيم» بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في «صفين» سنة ٣٧ هـ، واستمرت ثورتهم، بل وازدادت عنفاً بعد استئثار الأمويين بالسلطة واشتداد المظالم التي شهدها المجتمع على أيدي خلفائهم وولاتهم.. فما كانت تخمد لهم ثورة إلا لتندلع أخرى، ولا ينهزم لهم جيش حتى يجيشوا آخر بديلاً..

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز ثار الخوارج بإقليم الجزيرة ـ شمالي العراق ـ بقيادة شوذب (بسطام) ـ من بني يشكر ـ وكانوا في البداية ثمانين فارساً، أغلبهم من قبيلة ربيعة.. ولأول مرة في تاريخ الدولة الأموية تقرر السلطة ادخال الخوارج في

---

(١) (تثبيت دلائل النبوة) ج ٢ ص ٥٧٤، ٥٧٥، تحقيق. د. عبد الكريم عثمان. ط. بيروت ١٩٦٦ م.

«السلام العام»، وتستبدل في الصراع معهم، الكلمات بدلاً من السيوف.. ولم يكن ذلك التحول عن ضعف من عمر بن عبد العزيز، وإنما كان عن يقين بأحقية الخوارج في الثورة على الظلم، ومشروعية الثورات التي أشعلوها ضد ولاة الجور وأئمة الفساد.. لكن.. أما والدولة قد اصبحت الآن ثائرة هي الأخرى لتحقيق العدل، فلا بد من السعي - بالسلام العام وبالحوار - لتوحيد قوى الثورة وفصائل الثوار.. ولهذا كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى شوذب - (بسطام) - يقول: «انه بلغني أنك خرجت - (ثرت) - غضباً لله ولنبيه، ولست أولى بذلك مني، فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا»!..

فهو يعرض عليه المناظرة، ويتعهد، مسبقاً، بأنه إذا أظهر أن الحق مع الخوارج فإن الخليفة سيعيد النظر في شرعيته وشرعية دولته وسلطته!.. ولقد استجاب شوذب لدعوة عمر، وقال له: «لقد أنصفت»! وبعث إليه بوفد من مقاتلة الخوارج دخلوا عاصمة الدولة بسلاحهم، ثم أناب الوفد للمناظرة رجلين، أحدهما عربي من بني يشكر وثانيهما: ممزوج، مولى بني شيبان.. فدخلا على عمر بن عبد العزيز، وناظراه وكان بينهما حوار بدآه بقولهما:

- أخبرنا عن يزيد بن عبد الملك - (ولي العهد بعد عمر) - لم تقره خليفة بعدك؟!

ـ لقد صيره غيري ـ (فالخليفة السابق: سليمان بن عبد الملك هو الذي عينه) ـ.

ـ أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أتراك كنت أديت الأمانة لمن ائتمنك؟!

ووجد عمر القوة واضحة في حجة الخوارج .. صحيح أن الذي عهد بالخلافة من بعده إلى يزيد بن عبد الملك ليس هو، وإنما هو سليمان بن عبد الملك، ولكن طالما أن العهد قد وقع لغير أمين، فلا يصح اقراره من الخليفة الأمين! .. ولم يكابر عمر، بل طلب من مناظريه مهلة ثلاثة أيام ـ «أنظراني ثلاثاً»[1] ـ أي أنه قد فتح الباب للنظر، أو لإعادة النظر في أمر من يتولى الخلافة من بعده، أي في النظام الذي استقر عليه بنو أمية في توارث الخلافة منذ قيام دولتهم على يدي معاوية بن أبي سفيان ! ..

وغادر وفد الخوارج، بسلاحهم، العاصمة إلى معسكرهم، في انتظار قرار الخليفة.. ولقد تولدت لديهم، بعد المناظرة والاقتراب من أفكار الخليفة، الثقة بأن أهدافهما واحدة، بل وكذلك السبل لتحقيق هذه الأهداف، وان الخلافات قد أصبحت ضئيلة، بل وشكلية أحياناً، وان شمول «السلام العام» لهم هو أمر غير مستبعد ولا بعيد.. وعندما ساهم

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٥، ٥٥٦.

البعض عما بقي بينهم وبين عمر من خلاف، فقال:

ـ ماذا تنقمون عليه؟. . ـ (كان جوابهم): ـ

ـ ما ننقم عليه إلا أنه لا يلعن من كان قبله من أهل بيته، وهذه مداهنة منه[1]!. .

لكن الخوارج فوجئوا بجيش الدولة يهاجم معسكرهم قبل انقضاء الهدنة التي قررها الخليفة، فسألوا الوالي محمد بن جرير:

ـ ما أعجلك قبل انقضاء المدة فيما بيننا وبينكم؟!. .

فأجابهم:

ـ إنه لا يسعنا ترككم على هذه الحالة!. .

فعجبوا. . ثم اتضح السبب، فبطل العجب. . ذلك أن امراء بني أمية قد جزعوا عندما علموا أن عمر بن عبد العزيز قد قرر إعادة النظر في أمر من سيلي الخلافة من بعده، أي قرر العدول عن نظام التوارث في الخلافة، وجعل للرأي والمشورة مكاناً في هذا المقام، فبيتوا أمرهم، ودسوا له السم في الشراب، فمات قبل انقضاء الأيام الثلاثة التي تواعد مع الخوارج بعدها على اصدار القرار!. .

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٦٤.

ولقد أدرك الخوارج، بداهة واستنتاجاً، أن الهجوم المباغت الذي شن عليهم، ما كان له أن يحدث لو أن عمر لا يزال حياً، فقالوا: «ما فعل هؤلاء هذا إلا وقد مات الرجل الصالح»![1].

على هذا النحو سارت علاقة عمر بن عبد العزيز بالخوارج.. آثر الحوار بدلاً من الحرب.. وسعى لادخالهم في «السلام العام»، وكاد أن يفلح لولا أن أمراء بني أمية عاجلوه فانهوا حياته، وأنهوا معها مسعاه لتحقيق «السلام العام»!

ومع الهاشميين:

والهاشميون، هم الآخرون، كانوا تياراً معارضاً للدولة الأموية منذ تأسيسها، بل منذ أن شق معاوية عصا الطاعة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولقد بلغت معارضتهم هذه قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، حد الثورة أحياناً، كما حدث عند ثورة التوابين بزعامة سليمان بن صرد (٢٨ ق. هـ ـ ٦٥ هـ ـ ٥٩٥ ـ ٦٨٤ م) وعندما ثارت الكيسانية بزعامة المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي (١ ـ ٦٧ هـ ـ ٦٢٢ ـ ٦٨٧ م).

ولقد جاء عمر بن عبد العزيز ليدخل، بالعدل والانصاف، تيار الهاشميين المعارض في اطار «السلام العام»..

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٧٥، ٥٥٦، ٥٧٦.

* ففي عهد الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، كان النظام المقرر في مصارف الأموال يعطي الرسول سهماً وذوي قرابته سهماً. . فلما توفي الرسول استقر الأمر على جعل هذين السهمين للدولة، تضعهما في أدوات الحرب ـ (الخيل والسلاح) ـ وكان للهاشميين، كغيرهم، عطاؤهم المقرر في الديوان. . ولكن بني أمية حرموا بني هاشم عطاءهم، فعانوا، وخاصة المعارضين منهم، الفقر والمسغبة. . فجاء عمر بن عبد العزيز ليرد على بني هاشم ما يستحقون، وليعوضهم عن بعض ما لاقوه في عهد خلفاء بني أمية السابقين. فلقد طلب إلى عامله على المدينة أن يقسم في أولاد علي بن أبي طالب، من فاطمة، عشرة آلاف دينار، وقال: «انهم طالما تخطتهم حقوقهم»[1]!. .

وهو قد رد إليهم ممتلكاتهم التي انتزعت من أيديهم[2]. .

وأمر بأن يعود سهم الرسول وسهم ذوي القربى فيقسم فيهم من جديد[3]. .

وعندما اجتمع نفر من بني هاشم ليكتبوا إليه شاكرين عدله «وما فعله بهم من صلة أرحامهم بعد أن ظلوا مجفين منذ عهد

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٤.
(٢) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٩٩.
(٣) (الخراج) لأبي يوسف. ص ٢١.

معاوية» رد عليهم بأن هذا حقهم قد عاد إليهم.. وأكثر من ذلك، فلقد أخبرهم بأن موقفه هذا هو رأي له قديم، ارتآه قبل أن يتولى الخلافة، وسعى إلى تطبيقه على عهد الخلفاء الذين سبقوه.. قال لهذا النفر من بني هاشم في جواب شكرهم له: «قد كان رأيي قبل اليوم هذا، ولقد كلمت فيه الوليد بن عبد الملك وسليمان فأبيا عليّ، فلما وليت هذا الأمر تحريت به الذي أظنه أوفق إن شاء الله»[1]!

ولقد أتاح «السلام العام» الذي أعلنه عمر بن عبد العزيز، وادخاله بني هاشم فيه، أتاح ذلك لفرعهم العباسي بدء التحرك السياسي، فبعد أن كان الخوف قد أقعدهم عن التحرك الايجابي ضد بني أمية، بدأ العباسيون الدعوة إلى انتقال الخلافة «للرضا من آل البيت».. ووجه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الدعاة يدعون إليه وإلى آل بيته في سنة ١٠٠ هـ على عهد عمر بن عبد العزيز[2]!

* وقبل عمر بن عبد العزيز كان خلفاء بني أمية قد سنوا سنة سيئة عندما قرروا على خطباء المنابر في المساجد أن يلعنوا علي بن أبي طالب، من فوق منابرهم، في كل خطاب يلقونه!.. وكان على الحضور، كي يسلموا، أن يؤمنوا - بقولهم:

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٩.
(٢) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٦٥٢.

آمين) - على لعن الخطيب لرابع الخلفاء الراشدين؟!.. فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز أبطل هذه السنة السيئة، وطلب إلى الخطباء أن يضعوا، بخطبهم، في الموضع الذي كانوا يلعنون فيه علياً الآية القرآنية التي تقول: ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾[1]!

.هكذا أعلن عمر بن عبد العزيز مبدأ «السلام العام»، وسعى حتى دخلت فيه، مع جهاز دولته الشوري، مختلف فصائل المعارضة والاصلاح والثوار: المعتزلة - أهل العدل والتوحيد - والخوارج.. والهاشميون.. كما سوى، في الحقوق والواجبات، بين الموالي والعرب، وعالج، بعدله، مشكلات أهل الكتاب، ومن اعتنق منهم الاسلام حديثاً، فدخل الناس كافة في إطار هذا السلام العام..

ولقد استحق عمر بذلك مدح الشاعر الشيعي كثير عزة عندما خاطبه فقال:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف
بريا ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي
فعلت، فاضحى راضياً كل مسلم![2]

---

(١) الحشر: ١٠ (وانظر: مروج الذهب. ج ٢ ص ١٤٤).

(٢) (الأغاني) ج ٩ ص ٧٨، ٣٣.

ثورة في جهاز الدولة

[كتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد الولاة:
«لقد كثر شاكوك، وقل شاكروك! فإما عدلت، وإما اعتزلت!.
والسلام..](٩)..

لم يلجأ عمر بن عبد العزيز إلى جهاز الدولة الذي ورثه عن أسلافه، بعماله وولاته وقضاته، كي يحقق به ثورته الاجتماعية التي نذر نفسه لتحقيقها.. ولقد أشرنا من قبل إلى شكواه التي بثها إلى ربه من عمال الدولة وولاتها الظلمة الذين تسلطوا على رقاب الأمة في الأقاليم والأمصار: «... الحجاج بالعراق، والوليد بالشام، وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة... اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً، فأرح الناس!»[1]..

فلما أن ولي هو الخلافة سعى، وعلى الفور، إلى راحة الناس!.. فلقد قرر ما يمكن أن نسميه بلغة عصرنا: هدم جهاز الدولة الظالمة القديم، وإقامة جهاز الدولة العادلة الجديد.. فبدأ بأن عزل العمال والولاة الذين ولاهم من سبقه من الخلفاء، واختار بدلاً منهم «أصلح من قدر عليه» وأقرب

(١) (الكامل في التاريخ) ج ٤ ص ٢٢٢.

من يستطيعون معه وضع العدل في موضع الظلم، «فسلك عماله طريقته»[1] - كما يقول المؤرخون - . . وهو لم يتوان في اتخاذ قراره هذا، بل لقد بدأه وهو على قبر الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك، وفور مواراة جثمانه التراب[2]! . .

ولقد استعان عمر بن عبد العزيز بأهل الرأي الصائب والصالحين من المشيرين في اختيار الولاة والعمال والقضاة، وسائر أركان جهاز الدولة الجديد. . فلقد كانت نصب عينيه الحقيقة القائلة: انه بدون الأعوان الخيرين لا يمكن أن يتحقق خير. . وبلغة عصرنا: لا ثورة بدون ثوار! . . ولقد دارت حول هذه الحقيقة مكاتبات بين عمر بن عبد العزيز وبين طاوس بن كيسان (٣٣ - ١٠٦ هـ ٦٥٣ - ٧٢٤ م) عندما استشاره عمر في هذا الأمر، فقال له: «إن أردت أن يكون عملك خيراً كله، فاستعمل أهل الخير! . . ولقد عبر عمر عن عميق اقتناعه بهذه الحقيقة عندما عقب عليها فقال: «كفى بها موعظة»! . .[3]

وهو قد استشار، في اختيار جهاز دولته الجديد، ميمون بن مهران، فقال:

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٤.
(٢) (الوزراء والكتاب) ص ٥٢.
(٣) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٤.

ـ يا ميمون، كيف لي بأعوان على هذا الأمر أثق بهم وآمنهم؟! . . . ـ (فأجابه):

ـ يا أمير المؤمنين، لا تشغل قلبك بهذا، فإنك سوق، وإنما يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيه، فإذا عرف الناس أنه لا ينفق عندك إلا الصحيح لم يأتوك إلا بالصحيح»![1].

ورغم صدق مقولة ميمون بن مهران هذه، إلا أن قلب عمر وعقله ظلا مشغولين بهذا الأمر العظيم، أمر اختيار الرجال الصالحين للعمل الصالح الذي نهض له هذا الخليفة الصالح فهو عندما أراد أن يختار لخراسان والياً طلب مشيراً صالحاً يستشيره فيمن يوليه فأتوه بواحد من القراء الصالحين الثقاة الثوار هو أبو مجلز لاحق بن حميد، فعرض عليه عمر أسماء أثنين من المرشحين للولاية، وطلب منه الموازنة، للاختيار . سأله عن: عبد الرحمن بن عبد الله القشيري؟ . . فقال عنه أبو مجلز: «إنه يكافىء الأكفاء، ويعادي الأعداء وهو أمير يفعل ما يشاء، ويقدم إن وجد ما يساعده»! . . ثم سأله عن: عبد الرحمن بن نعيم؟ فقال: «إنه ضعيف لين، يحب العافية، وتأتي إليه»! . . وكان عمر يدرك أن الناس، بعد سنوات من التجبر والقهر، هم أحوج ما يكونون إلى ولاة

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٩١.

يحبون العافية، وبابهم مفتوح لشكاوي المظلومين.. فاختار عبد الرحمن بن نعيم، قائلاً «الذي يحب العافية وتأتي إليه أحب إلي»[1]!..

ولقد سبق وأشرنا إلى استعانة عمر بغيلان الدمشقي وثوار المعتزلة ومختلف فصائل المعارضة لبني أمية، وكيف انعكس «السلام العام» وانعكست ثمراته على تكوين جهاز دولته الجديد..

هكذا صنع عمر بن عبد العزيز مع جهاز الدولة.. هدم بنيته القديمة الظالمة.. واستبدل بها بنية جديدة عادلة، أو أقرب ما تكون إلى العدل الذي استهدف تحقيقه بين الناس.. فكان عامله وواليه:

* على المدينة: أبو بكر محمد بن حزم.. وقاضيها: أبو طوالة..

* وعلى الكوفة: عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.. وكاتب الحرب والخراج فيها: أبو الزناد.. وقاضيها: عامر الشعبي.

* وعلى البصرة: عدي بن أرطأة.. وقاضيها ـ لبعض الوقت ـ الحسن البصري..

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦١.

* وعلى اليمن: عروة بن محمد بن عطية السعدي.

* وعلى الجزيرة: عدي بن عدي الكندي.

* وعلى أفريقية: إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر..

* وعلى دمشق: محمد بن سويد الفهري - (وهو من المعتزلة) -..

* وعلى خراسان: الجراح بن عبد الله الحكمي..

* وعلى سمرقند: سليمان بن السري..

ولم يكتف عمر بهذا التغيير، كما لم يقف بمسؤوليته عند حدود اصدار المواعظ أو الأوامر والنواهي، بل كان دائم المراقبة والتفتيش على هؤلاء الولاة والعمال.. فهو يكتب إلى أحد عماله، محذراً متوعداً، فيقول: «لقد كثر شاكوك، وقل شاكروك! فإما عدلت، وإما اعتزلت!. والسلام»[1].

وهو قد طلب إلى الناس أن يستقر كل في بلده وموطن عمله، بدلاً من العاصمة، ولكنه أعلن أن سبيل المظلوم إلى منزل الخليفة ومجلسه يجب أن يفتح، بل ويمهد، حتى لقد أعفي المظلوم من طلب الاذن في الدخول على أمير المؤمنين!

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٥.

فقال: «. . ومن ظلمه عامله فليس عليه مني إذن، فليأتني»[1]! . .

وكان دائم الموالاة على إرسال الثقاة يستكشفون أحوال الرعية ويلتقطون أخبار الولاة والعمال. . بعث إلى خراسان: بشر بن صفوان، وعبد الله بن عجلان، وخالد بن سالم «ينظرون ظلامات الناس من نظام خراجها» عندما اشتكوا من النظام الذي قرره عدي ابن أرطأة[2]. . وطلب إلى رياح بن عبيدة أن يأتيه بأخبار الناس والولاة في العراق، وقال له:

ـ حاجتي إليك أن تسأل عن أهل العراق، وكيف سيرة الولاة فيهم، ورضاهم عنهم؟

فلما عاد إليه رياح بن عبيدة وأخبره «بحسن سيرتهم في العراق وثناء الناس عليهم». . قال:

ـ الحمد لله على ذلك، لو اخبرتني عنهم بغير هذا عزلتهم، ولم استعن بهم بعدها أبداً. إن الراعي مسؤول عن رعيته، فلا بد أن يتعهد رعيته بكل ما ينفعهم الله به ويقربه إليه، فإن من ابتلي بالرعية فقد ابتلي بأمر عظيم[3]؟!

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٩٠.
(٣) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١١٩.

ولقد رأينا كيف عزل عمر، عن خراسان، يزيد بن المهلب، وأدخله رغم عصبيته، السجن، بل وهم بنفيه إلى جزيرة «دهلك» في البحر الأحمر، قرب الساحل الأفريقي، لولا أنه خاف اختطاف عصبته له وهو في الطريق إلى المنفى.. ولقد قال عنه وعنهم: «هؤلاء جبابرة، ولا أحب مثلهم»[1]!

هكذا صنع الخليفة العادل الصالح مع جهاز الدولة.. فحتى يزيل ظلم الدولة أزال جهازها الظالم.. وحتى يزرع في دولته العدل أقام لها جهازاً يتحرى العدل قدر الامكان.. وبعبارة المسعودي: «ولقد صرف عمر بن عبد العزيز عمال من كان قبله من بني أمية، واستعمل اصلح ما قدر عليه، فسلك عماله طريقته»[2]!

ولقد كان ذلك ضرورياً.. فالناس على دين ملوكهم.. كما قال القدماء.. وكما يقول المحدثون؟!

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٦، ٥٥٧.

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٤.

رد المظالم.. أو: الثورة الاجتماعية

[إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه، ولا لهم أن يعطونيه!..

وثروة الأمة: نهر أعظم، والناس شربهم فيه سواء؟!..]

عمر بن عبد العزيز

لقد أوجز القدماء وصف مضمون الثورة الاجتماعية التي انجزها عمر بن عبد العزيز في كلمتين اثنتين هما: «رد المظالم»!.. وكانوا مصيبين الاصابة كلها، ففي هاتين الكلمتين: الوصف الموجز والتحديد الدقيق..

و«رد المظالم»، أو «الثورة الاجتماعية» قد تمثلت بانجاز عمر ابن عبد العزيز هذا في عملين، هما في الواقع عمل واحد متكامل.. فهو قد انتزع الأرض والمال والثروة، وكل المقتنيات، التي كانت في صدر الاسلام ملكاً لبيت مال المسلمين، أي للأمة، وكانت تمثل الثروة الأساسية للمجتمع والأمة، انتزعها من حيازة الذين حازوها واحتازوها وملكوها، وردها مرة أخرى إلى بيت مال المسلمين، كي تعود مرة أخرى ملكاً للأمة جمعاء.. وخلال هذه العملية الثورية الكبرى عالج المظالم الفردية فأخضعها لنفس القانون..

وحتى ندرك عظم هذه العملية الثورية وشمولها، ومن ثم

عظم الثورة الاجتماعية التي انجزها عمر بن عبد العزيز وعمقها، علينا أن نتذكر:

* ان الاسلام قد حدد أن المال في المجتمع هو مال الله ، وأن الناس، بحق الخلافة في الأرض عن الله، هم خلفاء في هذا المال، وليسوا بملاك ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[1] ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾[2].. فالأرض، وما فيها وما عليها قد جعلها الله للبشر أجمعين ﴿والأرض وضعها للأنام﴾[3]، وهم يستثمرونها بالعمل، وينال كل عامل فيها ثمرة سعيه هو ﴿وان ليس للانسان إلا ما سعى﴾[4]..

ولقد حددت السنة النبوية، وهي تشرع للمجتمع الاسلامي الأول، أن المصادر الأساسية والعامة للثروة في المجتمع إنما هي «شركة مشتركة» بين الكافة من الناس، فقال الرسول، عليه الصلاة والسلام: «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء، والكلأ، والنار، وثمنه حرام»[1].. كما حددت هذه السنة ان ليس للانسان إلا ما يكفل له العيش الكريم الضامن

---

(١) الحديد: ٧.

(٢) النور: ٣٣.

(٣) الرحمن: ١٠.

(٤) النجم: ٣٩.

(٥) رواه ابن ماجة وابن حنبل.

لتوفير الاحتياجات، وأن ما زاد على احتياجات الانسان وفضل عنها فهو «فضول» - (زيادة) - لا حق للانسان في احتيازها، فضلاً عن إدعاء امتلاكها والحرية في التصرف بها.. فـ«من كان عنده فضل من ظهر - (دابة) فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له».. وراوي الحديث، وهو الصحابي أبو سعيد الخدري، يكمل الرواية فيقول: ان الرسول ﷺ، قد «ذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل[1]»!.. وفي حديث آخر يحدد الرسول ماذا للحائز في المال؟ فيقول: «يقول ابن آدم: مالي! مالي! وإنما مالك: ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت[2]»..

وأما ما زاد عن الاحتياجات، التي تتحدد بالعرف ودرجة الرخاء للأمة، فهو «الفضل - الزيادة - العفو»، وهو داخل في اطار ما يجب انفاقه حيث الحاجة إليه قائمة، بنص الآية القرآنية التي تقول: ﴿يسألونك ماذا ينفقون؟ قل: العفو، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾[3].. وجمهرة المفسرين، ومنهم ابن عباس (٣ ق.هـ - ٦٨ هـ ٦١٩ - ٦٨٧ م) والحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م)

---

(١) رواه مسلم وابن حنبل.

(٢) رواه النسائي.

(٣) البقرة ٢١٩.

وقتادة بن دعامة السدوسي (٦١ ـ ١١٨ هـ ٦٨٠ ـ ٧٣٦ م) وعطاء بن دينار (١٢٦ هـ ٧٤٤ م) والسدي، اسماعيل بن عبد الرحمن (١٢٨ هـ ٧٤٥ م) والقرظي محمد بن كعب، وابن أبي ليلى، محمد بن عبد الرحمن (٧٤ ـ ١٤٨ هـ ٦٩٣ ـ ٧٦٥ م).. الخ.. الخ.. جمهور المفسرين على أن (العفو) الواجب انفاقه «هو ما فضل عن العيال، فالمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم»[1]..

ذلك هو موقف الاسلام من ثروة المجتمع..

* وعندما فتح المسلمون، على عهد عمر بن الخطاب، المجتمعات الزراعية والغنية، ذات الثروة والحضارة، لم يخضعوا فكرهم الاجتماعي والمتقدم لما كان بهذه المجتمعات من فلسفات إجتماعية طبقية واستغلالية ـ في فرس الأكاسرة وشام القياصرة، ومصر الاستعمار البيزنطي ـ.. وإنما طوع عمر بن الخطاب نظام تلك المجتمعات، ومن ثم نظام الدولة الاجتماعي بأكمله، للفكر الاسلامي الاجتماعي المتقدم، وذلك عندما استقر الأمر على جعل ملكية رقبة الأرض في أحواض أنهار تلك البلاد بأكملها لبيت مال المسلمين، أي للأمة جمعاء، أجيالها الحالية والمستقبلة.. ولقد قال عمر بن الخطاب، يومها، تزكية لهذا الاتجاه ضد الاتجاه الذي رأى

---

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٣ ص ٦٢. طبعة دار الكتب المصرية.

أصحابه توزيع أربعة أخماس هذه الأرض، بمن فيها من الفلاحين، على الجند الفاتحين لهذه البلاد، ملكاً خاصاً لهم!.. قال عمر: «ما هذا برأي، ولست أرى ذلك... فإذا قسمت هذه الأرض فما يسد به الثغور، وما يكون للذرية والأرامل... لقد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء»... فأصبحت هذه الأرض، وهي الثروة الأساسية للدولة، ملكاً جماعياً لمجموع الأمة، في حاضرها ومستقبلها... وبعبارة أبي عبيد القاسم بن سلام: «فيئاً موقوفاً للمسلمين ما تناسلوا، يرثه قرن عن قرن (أي جيل عن جيل)[1]..»

* لكن هذا الذي استقر عليه الاسلام، والمسلمون حتى عهد عمر قد بدأ يتغير منذ خلافة عثمان بن عفان.. فأشراف قريش الذين حجزهم عمر، بالمدينة، ومنعهم من السعي لحيازة الثروات، وامتلاك الأرض في البلاد الغنية المفتوحة، قد انطلقوا وحققوا طامحهم ومطامعهم على عهد عثمان.. وكما يقول الطبري: فإن عمر كان «قد حجر على أعلام قريش، من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بإذن وأجل.. فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان عمر يأخذهم به، فخرجوا إلى

(١) (الأموال) لأبي عبيد ص ٥٧ ـ ٥٨. طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ. و(الخراج) لأبي يوسف ص ٢٣ ـ ٢٧، ٣٥.

البلاد، فلما نزلوها ورأوا الدنيا؟! ورآهم الناس فانقطع إليهم الناس، وتقربوا إليهم، وقالوا: يملكون فيكون لنا في ملكهم حظوة؟! فكان ذلك أول وهن على الاسلام، وأول فتنة كانت في العامة! ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر»[1]! . .

وملأ قريش، هؤلاء الذين بدأت تتغير لمصلحتهم فلسفة المجتمع المالية، كان بنو أمية في مقدمتهم، بل كانوا معظمهم، فكما يقول ابن خلدون: «ان عصبية مضر كانت في قريش، وعصبية قريش في عبد مناف، وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية»[2]!

والأرض التي استصفاها المسلمون عند الفتح، والتي كانت ملكاً لكسرى وأمرائه وقواده وحكومته، أصبحت في عهد عمر ملكاً للأمة ـ وسميت: الصوافي ـ ولكن في عهد عثمان بن عفان بدأ اقطاع هذه الأرض للأفراد[3]. . ومثل ذلك حدث

---

(١) ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) ج ١١ ص ١٢، ١٣، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.

(٢) (المقدمة) ص ١٧١ ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.

(٣) يحيى بن آدم (الخراج) ص ٧٩. طبعة سنة ١٣٤٧ هـ. و (الخراج) لأبي يوسف ص ٦٢.

لأرض العراق، فلقد كانت ملكاً عاماً للأمة وبيت مالها حتى كان عهد عثمان فبدأ يقطعها هي الأخرى[1]!.. واستمر النمو لحجم الحيازات الخاصة والاقطاعات في الأرض على حساب الملكية العامة لها حتى كان عهد الحجاج بن يوسف، عندما احترقت سجلات الديوان، سنة ٨٢ هـ في موقعة دير الجماجم، أثناء قتال الدولة للثوار، فضاعت الوثائق التي تجعل ملكية هذه الأرض ـ كتابة ـ لبيت المال، بعد أن ضاعت هذه الملكية العامة في الواقع العملي! وعند ذلك ـ كما يقول الماوردي: «أخذ كل قوم ما يليهم[2]! واستأثروا به دون بيت المال وعامة المسلمين..

ولقد انعكست هذه التغيرات التي حدثت في فلسفة المجتمع المالية على التفاوت الاجتماعي والمالي الذي أخذ يتضح بين الخاصة وبين العامة[3].. بل واستفزت هذه الأمور المحدثة عامة المسلمين إلى الثورة التي انهت عهد عثمان بن عفان وجاءت بعلي بن أبي طالب إلى الخلافة كي يرد المظالم ويغير ما أحدثه عثمان من أحداث[4].. ولقد حاول علي بن أبي طالب

---

(١) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٢٨٢. طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ.

(٢) (الأحكام السلطانية) ص ١٩٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م.

(٣) أنظر (مروج الذهب) ج ٢ ص ٣٤١ ـ ٣٤٣، ٣٤٩.

(٤) د. محمد عمارة (الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب) ص ٢٩ ـ ٤٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م.

ذلك، ولكن بني أمية ومن شايعهم كانوا له ولثورته بالمرصاد. . ثم تداعت الأحداث حتى أفضت بالسلطة كاملة إلى معاوية بن أبي سفيان، فكانت الدولة الأموية هي الامتداد لعهد عثمان بن عفان! وكانت، من ثم، سياستها المالية وفلسفتها الاجتماعية تطوراً نحو الأسوأ، ونمواً في اتجاه سيادة الواقع الاجتماعي الطبقي الاستغلالي الذي ثار عليه المسلمون في عهد عثمان، وحاولوا تغييره بقيادة علي بن أبي طالب، ثم استمرت شكواهم منه، وانتفاضاتهم ضده تحت حكم الأمويين[1]. .

لقد انتقلت، على عهد عثمان، أجزاء من ثروة الأمة العامة إلى حيازة الأفراد. . وسماها الناس «مظالم»، وكان مطلبهم عندما ثاروا على عثمان: رد المظالم أو اعتزال الخلافة. . وعلى عهد بني أمية، وعندما وصل منصب الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز كان الجزء الأكبر من ثروة الأمة قد انتقل إلى حيازة الأفراد، بل وملكيتهم. . فكانت تلك هي المظالم التي تمثلت في ردها إلى اصحابها الثورة الاجتماعية لعمر بن عبد العزيز. . فهي تعني ذلك التغيير الاجتماعي الجذري والعميق، الذي ينتزع ثروة المجتمع من أولئك الذين احتازوها وتوارثوها، منذ عهد عثمان وحتى عهد سليمان بن عبد الملك، وردها

---

(١) د. محمد عمارة (الاسلام والثورة).

ثانية إلى ملكية الأمة عامة، ومعالجة المظالم الفردية التي حدثت خلال هذا الظلم العام!..

ولقد أصاب المؤرخون كبد الحقيقة عندما قالوا: أن هذه الثورة الاجتماعية ـ (رد المظالم) ـ كانت هي المهمة الأولى والأساسية والكبرى لخلافة الخليفة عمر بن عبد العزيز. فلقد قالوا: «إنه ما زال يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات[1]!.. أي أن ثورته وثوريته لم تعرف الفتور يوماً، ولم يصبها الانحراف عن طريقها القويم.

ولقد بدأ بنفسه:

وعمر بن عبد العزيز، قبل أن يلي الخلافة ويعلن ثورته الاجتماعية ويبدأ ملحمته لرد المظالم، كان أميراً من أمراء البيت الأموي الحاكم، ورغم صلاحه ونزوعه إلى العدل فإنه كان يحيا حياة من اعتدلت أخلاقه من الأمراء.. صالح هو.. نعم.. ولكنه يتمتع ويستمتع بما تتيحه الامارة لأمثاله من يسر ونعيم!..

لقد كان من أكثر الناس اهتماماً بملبسه «يشتري الحلة بألف دينار، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها[2]!» ويشتري

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥١.

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٥، ١٤٦.

القميص بأربعمائة دينار، فإذا لمسه بيده «قال: ما أخشنه وأغلظه!».. ويهتم بعطره وعطر ثيابه، حتى لقد كان من «أعطر قريش». كما قال مخالطوه[1]!.. وحتى أن أترابه كانوا يدفعون لمن يتولون غسل الثياب مالاً أكثر حتى يغسلوا ثيابهم بعد ثيابه مباشرة كي تنال منها عطراً..!..

ولقد كانت مظاهر النعمة والرفاهية بادية عليه: سمنة تجعل حزام إزاره - (حجزة إزاره) - تغوص بين تلافيف جسمه - (تغيب في عكنه!)-.. وإذا مشى خطر بيديه في خيلاء تميز بها عن كثير من الأقران![2]..

وكانت له، كغيره من الأمراء، أموال واقطاعات، وجواهر للزينة والاقتناء!..

لقد كان أميراً منعماً في بيت مالك استبد خلفاؤه وأمراؤه بطيبات امبراطورية امتدت حدودها من البرتغال حتى الصين!..

فلما أن ولي عمر الخلافة، وأعلن ثورته لرد المظالم كانت ذاته وحياته أول ميدان يطبق فيه وينفذ به فكره الثوري.. لقد أعلن ثورته منذ اللحظة الأولى لتوليه الخلافة، وعرفت مبادىء

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٥، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٧. و (الخراج) لأبي يوسف ص ١٧.

ثورته سبيلها إلى التطبيق أول ما عرفت عليه هو، وقبل أي أحد سواه.. وبعبارة القدماء: «فإن عمر بن عبد العزيز لما رد المظالم قال: انه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي!».

* فلقد كان لديه متاع كثير،تنازل عنه ورده إلى بيت المال.. وكان من بينه «فص خاتم» جاء من أرض المغرب وأعطاه له الخليفة الوليد بن عبد الملك[1]!..

* وكان يمتلك عبيداً وثياباً وعطوراً ومقتنيات تزيد عن حاجة الثائر الزاهد، الذي أصبحه، فجمعها، وأمر بها فبيعت بثلاثة وعشرين ألف دينار، أودعها بيت المال لتنفق على أبناء السبيل[2]!..

* وكانت لديه جوار، للخدمة والاستمتاع.. فلما ولي الخلافة سمع خاصته في منزله بكاء عالياً، فلما استفسروا عن مصدر البكاء وسببه علموا «أن عمر قد خير جواريه، قائلاً لهن: قد نزل بنا أمر قد شغلنا عنكن، فمن أحب أن أعتقه أعتقته، ومن أمسكته لم يكن مني إليه شيء؟![3]».. فهو قد حرم على نفسه الاستمتاع بالجواري.

* وكانت مزرعة «فدك» ـ بالقرب من المدينة ـ قد آلت إليه،

---

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٥٢.
(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٥٤.
(٣) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٩٣.

وهي التي كانت زمن البعثة في مخصصات الرسول، عليه الصلاة والسلام، ثم أصبحت على عهد الراشدين لبيت مال المسلمين، فلما كان عهد معاوية أقطعها لمروان بن الحكم، ثم وهبها مروان لولديه: عبد العزيز وعبد الملك، ثم صارت لعمر والوليد وسليمان، حتى استخلصها عمر لنفسه.. فلما ولي عمر الخلافة، وأعلن ثورته، وبدأها بنفسه، أعاد «فدك» إلى ما كانت عليه زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال، في ذلك، لمولاه «مزاحم»: «ان أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه، ولا لهم أن يعطونيه[1]!».

ولقد اكتفى عمر، من المال والمتاع، بما يسد احتياجاته الضرورية، كحاكم مسلم ثائر، يضرب المثل للأمة كي تقتدي به في الثورة التي استهدف تحقيقها.

فلقد أصبح ثمن حلته عشرة دراهم بعد أن كانت بألف دينار؟؟.. ومع ذلك كان إذا لبسها استلانها![2].

وكانت له بغلة، أرسلها إلى الرعي، بعد أن عجز عن علفها، ثم باعها[3]!..

---

(١) (فتوح البلدان) ص ٢٩. و(الكامل في التاريخ) ج ٥ ص ٢٤.

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٦.

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٢.

وقنع بالكفاف، وامتنع عن أخذ شيء من بيت مال المسلمين[1].. ولما قيل له:

- لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب؟... (قال):

- ان عمر لم يكن له مال، وأنا مالي يغنيني[2]!».

ونهى عماله عن أن يقدموا إليه - كما كان الحال مع من سبقه - الهدايا في أعياد «النيروز» و«المهرجان»[3].. ولقد اشتهى التفاح يوماً، فعجز عن شرائه، فلما أهدي إليه رفضه، فسأله «فرات بن مسلم»:

- يا أمير المؤمنين، اشتهيت التفاح فلم يجدوه لك، فأهدي إليك فرددته؟!...

- لا حاجة لي فيه!..

- ألم يكن رسول الله، ﷺ، وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية؟!

- إنها لأولئك هدية، وهي للعمال بعدهم رشوة؟![4]..

---

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٩٦.

(٢) ابن عبد ربه (العقد الفريد) ج ٣ ص ١٦٩. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م.

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٦.

(٤) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٨.

ولما سأله البعض:

- يا أمير المؤمنين، إن الله يقول في كتابه: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾[1]!.. (كان جوابه):

- هيهات! ذهبت به إلى غير مذهبه، إنما يريد طيب الكسب ولا يريد به طيب الطعام[2]!..

وهو قد حال بين نفقاته الخاصة وبين ما هو ملك لبيت المال وعامة المسلمين، حتى لقد «أمر ألا يسخن ماؤه الذي يتوضأ به ويغتسل في مطبخ العامة!»[3]..

وكان يمتنع عن الجلوس على الوسائد العامة المملوكة للدولة إذا كان في مجلس خاص به.. وكذلك شموع الدولة وسرجها لا يوقدها في مجالسه الخاصة.. وأخباره في الحفاظ على أموال المسلمين العامة، والاقتصاد في النفقات تصل إلى درجة الأساطير![4]..

بل لقد بلغ به الفناء في المبدأ العام والاخلاص للمجموع إلى الحد الذي نهى الناس فيه عن أن يفردوه ويخصوه بشيء

---

(١) البقرة: ٥٧، ١٧٢. والأعراف: ١٦٠. وطه: ٨١.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٨٤.

(٤) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٨.

من الدعاء، وقال لهم: «ادعوا للمؤمنين والمؤمنات عامة، فإن أكن منهم أدخل فيهم!»[1].

وعندما أصبح عيشه خشناً بعد أن كان ليناً. وثيابه غليظة بعد أن كانت ناعمة.. وجسمه نحيلاً، حتى ليستطيع الرائي أن يعد أضلاعه دون لمسها بعد أن كان سميناً.. وغدا يمشي مشية الرهبان بعد الخيلاء.. وحدثه البعض فيما أحدثته ثورته بنفسه من انقلاب جذري وعام، قائلاً له:

- يا أمير المؤمنين، غيرت كل شيء حتى مشيتك!... (أجابه):

- والله ما رأيتها كانت إلا جنوناً[2]!..

لقد أمعن في التقشف والزهد، ضارباً لأمته المثل والقدوة.. وقبل أن يعالج بالعدل والثورة حياة الأمة العامة عالج بهما حياته الخاصة.. وقبل أن يرد مظالم الآخرين إلى أصحابها رد ما لديه هو من المظالم إلى بيت مال المسلمين.. وكما قال لمولاه «مزاحم»: «ان أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه، ولا لهم أن يعطونيه!»..

---

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٥٦، ٢٧٢، ٢٩٥، ٢٩٦.

(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٥. و(الخراج) لأبي يوسف. ص ١٧.

هكذا كانت حياة عمر بن عبد العزيز نقطة البدء في الثورة الاجتماعية التي أعلنها عمر بن عبد العزيز!..

وبزوجه وأولاده:

وقبل أن تمتد يد عمر بالعدل والثورة ورد المظالم إلى أمراء بني أمية وأشراف الدولة وسراتها، امتدت إلى زوجته: فاطمة بنت عبد الملك، فطلب إليها أن ترد ما حازت من ثروة إلى بيت مال المسلمين، حتى ما كانت تتزين به من حليّ وجوهر طلب منها أن تتجرد منه وترده إلى بيت المال، ولقد دار بينه وبينها، حوله، هذا الحوار.. سألها:

- من أين صار هذا الجوهر والمال والحليّ إليك؟!

- أعطانيه أمير المؤمنين، أبي، عبد الملك..

- ان أردت صحبتي فردي ما معك من مال وحليّ وجوهر إلى بيت مال المسلمين، فإنه لهم.. واما أن ترديه إلى بيت المال واما أن تأذنيني في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وانت وهو في بيت!..

- لا، بل اختارك على أضعافه لو كان لي!..

فوضعت فاطمة بنت عبد الملك ما كانت تحتاز من مال وجوهر وحليّ ببيت مال المسلمين، «لأنه لهم»، وهي لم تنله إلا كمظالم أقطعها لها من المال العام أبوها عبد الملك بن مروان!..

وكما حرم عمر على نفسه أن تتجاوز طعامها إلى طعام العامة، كذلك طلب إلى أهله الامتناع عن ادخال طعام العامة في طعامهن الخاص.. وكان قد أقام «دار طعام» للفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وقال لأهله: «إياكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئاً من طعامها، فإنما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل».. وكانت له زوجة حامل، تاقت نفسها إلى قليل من اللبن، وخافت ـ وفقاً للاعتقاد السائد ـ إن هي حرمت منه أن يسقط جنينها، فجاءتها خادمتها «بغرفة لبن» من دار طعام الفقراء، فأبصرها عمر بن عبد العزيز، فاشتد غضبه، ومنع زوجته من تناوله، وقال لها غاضباً معنفاً: «إن لم يمسك ما في بطنك إلا طعام المساكين والفقراء فلا أمسكه الله!»[1]..

وكذلك فعل عمر بأولاده.. فلقد أصابهم زهده وتقشفه، وكان رده لما حاز من مظالم يعني أن يتركهم من بعده فقراء، رغم أنهم أبناء أمير المؤمنين!.. وعندما حضرته الوفاة جمعهم من حوله، ورق لحالهم، وقال:

ـ بأبي وأمي من خلفتهم بعدي فقراء!..

وكان بمجلسه هذا مسلمة بن عبد الملك، فطلب إليه أن يكتب لأولاده مالا يبدلهم بالفقر غنى، وقال:

---

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٩٠، ٢٩١، ٢٧٩. و(الكامل في التاريخ) ج ٥ ص ١٦.

ـ يا أمير المؤمنين، تعقب فعلك ـ (أي غير ما صنعت من قبل) ـ واغنهم! فما يمنعك أحد في حياتك، لا يرتجعه الوالي بعدك!..

فتعجب عمر من قول مسلمة، وقال:

ـ يا مسلمة، منعتهم إياه في حياتي وأشقى به بعد وفاتي[1]؟!..

ورفض العودة عن الحق، حتى وإن عاش أبناء أمير المؤمنين من بعده فقراء!..

وبالأمراء والأميرات من بني أمية:

حق ما تقرره السنة النبوية والمأثورات الاسلامية من أن خطر جهاد النفس هو أعظم وأكبر من جهاد الآخرين فـ «المجاهد من جاهد نفسه لله»[2]، وجهاد النفس هو الأكبر إذا ما قيس بالحرب والقتال!..

لكن صلاح عمر بن عبد العزيز وتقواه قد جعلت من جهاده ضد الآخرين، وخاصة أمراء بني أمية، المعركة الكبرى والشاقة والشرسة، على حين كان جهاده ضد نفسه وآل بيته، برد المظالم التي احتازها مع زوجته، جهاداً أصغر، قبلت به

---

(١) (الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٨٤، ٣٣٨٥.

(٢) رواه الترمذي وابن حنبل.

عن سعادة ورضا النفس العالية والمطمئنة لهذا الخليفة الصالح والعظيم..

لقد كانت المعركة الشرسة هي معركته ضد بني أمية، وكان قراره برد المظالم التي احتازوها أول الجراحات وأخطرها في ثورته الاجتماعية الكبرى.. فعمر بن عبد العزيز هو الخليفة الثامن في سلسلة خلفاء الدولة الأموية وهو قد تولى الخلافة بعد أكثر من نصف قرن من بدء حكم هذه الدولة للعرب والمسلمين، فعندما ينهض، من خلال السلطة وبها، لانجاز ثورة إجتماعية تستهدف إحداث تغييرات جذرية في أنظمة اقتصادية واجتماعية استقرت لأكثر من نصف قرن، فبديهي أن تعترض طريقه المصاعب والعقبات، وهو عندما يريد أن يعيد إلى بيت مال المسلمين مظالم وحقوقاً اغتصبت منه، ثم امتلكت، ثم خضعت للميراث والتصرفات المالية المختلفة والمتوالية، فطبيعي أن تجابه محاولاته تلك بالكثير من المعارضات، وأخيراً، فهو عندما يريد أن ينزع هذه الثروات من أيدي «أمراء» لهم ما للأمراء من الشوكة والجاه والأعوان والنفوذ، فإن المجابهة لا بد وأن تكون حامية الوطيس.

ومع كل ذلك.. فلم يتردد، ولم يتوان عمر بن عبد العزيز.. فلقد بدأ يعمل مبضع الثورة في جسم الكيان المالي لبني أمية بادئاً من أعمق الأعماق، من نقطة البدء التي حدث فيها الانحراف عن نهج الاسلام الاجتماعي وانحيازه الجماعي

لجموع الأمة في الأموال والثروات.. وبعبارة القدماء فلقد أخذ عمر «يرد المظالم من لدن معاوية إلى أن استخلف، فأخرج من أيدي ورثة معاوية ويزيد ابن معاوية حقوقاً!.. ردها جميعاً إلى بيت المال».. بل وأخرج من هذه الأموال زكاتها في تلك السنوات!..[1]

ولم يقف عمر، مع أمراء بني أمية، عند حد انتزاع ما بأيديهم من «القطائع» والأموال والثروات والمقتنيات، بل ومنع عنهم ما كان الخلفاء السابقون قد أغدقوه عليهم من الرواتب والمخصصات.. وبعبارة القدماء: فإنه «منع قرابته ما كان يجري عليهم، وأخذ منهم القطائع التي كانت بأيديهم» وردها جميعاً لبيت مال المسلمين.. وقال لمن أبلغه شكواهم ومعارضتهم: «ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم؟![2]»..

ولقد كانت معارضة هؤلاء الأمراء هذه الثورة التي اجتاحتهم شديدة وعنيدة.. فلقد وحدوا صفوفهم. واجتمعوا على معارضة الخليفة، ثم أرسلوا إليه عمته، فاطمة بنت مروان، فذهبت إليه ليلاً تفاوضه، والأمراء المجتمعون في الانتظار.. ولقد استقبلها عمر استقبالاً حسناً، فأنزلها عن

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٢.
(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٥.

دابتها، وجلس إليها، وطلب إليها أن تبدأ الحديث.. فقالت:

ـ لقد أردت لقاءك، لأنه قد عناني أمر لا بد من لقائك فيه.. إن قرابتك يشكونك، ويزعمون، ويذكرون أنك أخذت منهم خير غيرك!..

ـ يا عمة، ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم؟!..

ـ إني رأيتهم يتكلمون! وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً؟!..

وعند هذا التهديد الذي أبلغته فاطمة بنت مروان عن الأمراء المجتمعين إلى الخليفة الثائر، قال عمر، في ثبات المؤمن الثائر:

ـ يا عمة، كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره!..

ثم أراد أن يضعها أمام منطق المؤمن الثائر الذي يرى في هذه الأموال التي صادرها من بني أمية «مظالم» و«فضولاً» ـ (زيادات) ـ عن الحاجات الضرورية، ومن ثم فهي «كنز» للمال يحرمه الاسلام ـ ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما

كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[1] ـ . . أراد عمر أن يضع عمته أمام هذا المنطق علها تتأثر به فتنحاز له، فطلب ديناراً، ومجمرة موقدة بالنار، وقطعة من الجلد، وألقى بالدينار في النار حتى حمي واحمر، ثم ألقاه على الجلد فسمع له صوت وصعد منه الدخان! . . وعندئذ توجه إلى عمته بالحديث:

ـ أي عمة! أما تأوين(ترقين وترحمين) لابن أخيك من مثل هذا؟! . .

ويبدو أن هذا المنطق « الأخروي» لم يكن كافياً لاقناع فاطمة بنت مروان، فألقى إليها الخليفة الثائر بالحجة التاريخية والموقف المالي لاسلام الصدر الأول والتنظيم الاقتصادي للمسلمين الأوائل، كي يضع بين يديها الدليل القاطع على أن الحق معه، وأن مكان هذه الثروات هو بيت مال المسلمين لا حيازة هؤلاء الأمراء وملكياتهم. . ولقد بلغت كلمات عمر بن عبد العزيز هذه قمة آيات الاعجاز في الثورية والانحياز لمجموع الأمة وتقرير ملكيتها الجماعية والعامة لثرواتها الأساسية، وغدت وستظل، دستوراً للذين يبحثون، بصدق، عن موقف الاسلام من الأموال والثروات. . قال الخليفة الصالح ثائراً:

ـ يا عمة، إن الله، تبارك وتعالى، بعث محمداً، ﷺ،

---

(١) التوبة: ٣٤، ٣٥.

رحمة، لم يبعثه عذاباً، إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك لهم نهراً[1] شربهم فيه سواء! ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه. فلما ولي عثمان اشتق من ذلك النهر نهراً؟!. ثم ولي معاوية فاشتق منه الأنهار؟!. ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان، حتى أفضى الأمر إلي، وقد يبس النهر الأعظم؟! ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه!».

فهو يحدد هنا، في وضوح لا لبس فيه، وجلاء لا غموض به:

ان الثروة في المجتمع هي «النهر الأعظم»، وان الاسلام قد قرر «شركة الناس واشتراكهم» فيه «فشربهم فيه سواء»!

وأن الانحراف عن هذا المبدأ الاسلامي قد بدأ في عهد عثمان ابن عفان، أول خلفاء بني أمية!، عندما اشتق من النهر الأعظم والعام: نهراً خاصاً!.. ثم زاد الانحراف عندما ولي معاوية بن أبي سفيان، فاشتق من النهر الأعظم والعام أنهاراً خاصة!.. ثم توالت الانحرافات يشتق أصحابها الأنهار الخاصة من النهر العام، حتى أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز فوجد أن النهر الأعظم والعام قد جف ويبس!.. وأن

(١) كناية عن الثروة في المجتمع، كما يتضح من السياق والعبارة.

ثورته الاجتماعية والمظالم التي يردها تعني وتستهدف حقيقة كبرى واحدة، هي: جفاف الأنهار الخاصة، وإعادة المياه جميعاً - (الثروة كلها) - إلى النهر الأعظم والعام للأمة جمعاء!.

وكما لم تقتنع فاطمة بنت مروان بالعبرة «الأخروية» التي مثلها لها عمر، كذلك لم تقتنع بهذا المنطق الاسلامي الثوري الذي صاغه في هذا الحديث.. فنهضت مستأذنة، وقالت له فيما يشبه التهديد بالمقاطعة:

- قد أردت كلامك ومذاكرتك، فأما إذا كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً أبداً؟!..

ثم رجعت إلى الأمراء المجتمعين، وأفضت إليهم باستحالة التوفيق بين مطالبهم ومواقفهم وبين منطق عمر والأمر الذي هو جاد فيه.. ولقد لامتهم على ادخالهم «بذرة» العدل والعدالة من بيت عمر بن الخطاب ونسله إلى بيت أمية! فقالت:

- ذوقوا مغبة أمركم في تزويجكم آل عمر بن الخطاب.. تزوجون آل عمر بن الخطاب، فإذا نزعوا الشبه جزعتم اصبروا له؟![1]..

ولم تتوقف معارضة الأمراء الأمويين..

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٥. و(الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٧٥، ٣٣٧٦.

فجمعوا أنفسهم وذهبوا إليه، وعاتبوه على انتزاعه ثرواتهم واقطاعاتهم.. وقالوا له:

ـ إنك قصرت بنا عما كان يصنعه بنا من قبلك؟!

فما كان منه إلا أن هددهم بنقل الخلافة من بني أمية كلية، وبإعادتها إلى جماعة المسلمين شورى كما كانت من قبل، وأنبأهم أنهم لا يستحقون، ليس فقط الأموال التي احتازوها ظلماً، بل ولا الخلافة التي استأثروا بها من دون المسلمين.. وكان عمر يرى أن الأحق بولاية الخلافة من بعده القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (٣٧ ـ ١٠٧ هـ ٦٥٧ ـ ٧٢٥ م) أحد فقهاء المدينة السبعة وصلاحها، أو إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص الفقيه العابد الذي كان قد اعتزل «بالأعوص»، على بعد أميال من المدينة.. هددهم عمر بذلك، وقال:

ـ لئن عدتم لمثل هذا المجلس لأشدن ركابي ثم أقدمن المدينة، وأجعلنها شورى، فأنا أعرف صاحبها: الأعيمش (القاسم ابن محمد بن أبي بكر الصديق).

ولقد ظل هذا الخاطر وذلك النزوع يراود عمر بن عبد العزيز، ولم يمنعه عنه إلا الخوف من بني أمية أن يشعلوها فتنة تضيع على المسلمين ما استهدف تحقيقه من تغييرات. وحتى عندما وضعوا له السم، وعاجلوه، وحضرته الوفاة ظل يردد رأيه هذا، فقال على فراش موته: «لو كان لي من الأمر شيء

ما عدوت بهما: القاسم بن محمد، وصاحب «الأعوص»: إسماعيل بن عمرو بن سعيد ابن العاص!..»[1].

ثم كتبوا إلى عمر كتاباً يحتجون فيه ويعارضون، بل ويلمحون بالعصيان، فاستشاط غضباً، ورأينا الخليفة التقي الصالح الذي يرفق بالحيوان، ويكتب إلى أصحاب دواب الحمل ألا يثقلوا عليها «باللجم» الثقيلة!.. وجدناه يغضب لحقوق المسلمين التي يريد هؤلاء الأمراء اغتيالها من جديد، فيهدد هؤلاء الأمراء «بالذبح»؟!.. ويقول: «إن لله في بني مروان ذبحاً، وايم الله لئن كان ذلك الذبح على يدي؟!».

ولقد خافه، عندئذ، هؤلاء الأمراء، لأنهم «كانوا يعلمون صرامته، وأنه إن وقع في أمر مضى فيه وأغلب الظن أنهم قرروا منذ ذلك التهديد ترك المواجهة، والكيد له في الخفاء..

ولقد كان عمر يعلم أن لهؤلاء الأمراء نفوذاً في الأقاليم والأمصار، وأن لهم على العمال والولاة دالة وسلطاناً، فخشي أن يفسدوا في الأقاليم، على يد العمال، ما يعمل هو لإصلاحه في العاصمة، فكتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، والي المدينة، وإلى غيره من الولاة هذا الكتاب[2]:

«إياك والجلوس في بيتك، أخرج للناس فآس بينهم في

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٥٣.

المجلس والمنظر، ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد، ولا تقولن: هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم؟!.. وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلي فيه»[1].

هكذا واجه عمر بن عبد العزيز تلك المهمة الصعبة من مهام ثورته الاجتماعية، فاقتحم ميدان رد مظالم بني أمية إلى بيت مال المسلمين، بضمير التقي، ويقين المؤمن، وعزيمة الثائر الصلب الذي لا يلين ولا يفرط في حق من حقوق الله والناس.

ثم انتشرت الثورة إلى الأقاليم والأمصار:

كما قدمنا.. فلقد بدأ عمر بن عبد العزيز ثورته الاجتماعية بنفسه، وبزوجه، وبأولاده، وبأمراء بني أمية وأميراتها.. وبعبارة القدماء: «انه بدأ بلحمته - (قرابته) - وأهل بيته، فأخذ ما كان في أيديهم، وسمى أعمالهم مظالم..»[2] وبعد ذلك شرع يعمم هذه الثورة إلى الأقاليم والأمصار، مستهدفاً ذات الأهداف، وبالتحديد:

---

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٢) (الأغاني). ج ٩ ص ٣٣٧٥.

* رد المظالم من الذين احتازوها إلى مكانها الأول في بيت المال العام . .

* وإعادة اقتسام ثروة الأمة بين الناس بالعدل والمساواة . .[1] وذلك بصرف النظر عن الأصول العرقية لهؤلاء الناس، فلقد «جعل العرب والموالي، في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء، سواء»[2] «بعد أن بلغت العصبية والتمييز العرقي في عهد أسلافه حد التفريق بين الزوج وزوجته إذا كانت عربية وكان هو من الموالي! وحد منع المسلم غير العربي من أن يؤم العرب المسلمين في الصلاة، كما فعل الحجاج ابن يوسف في العراق؟!..

ولقد استهدف عمر من هذه التسوية بين الناس، في الرزق والاحتياجات الضرورية، أن يعطي الذين طال حرمانهم، وأن يقضي على الاسراف والمسرفين. فلقد كان «الاسراف» وأهله قسمة تميزت بها مجتمعات الخلفاء الذين سبقوه، ولذلك وجدناه يتحدث عن هذه القضية في أول خطبة خطبها عقب البيعة له بالخلافة، فقال: «.. اتقوا الله، واعطوا الحق من أنفسكم، وردوا المظالم، فإني، والله، ما أصبحت لي موجدة - (حقد) - على أحد من أهل القبلة إلا موجدة على ذي اسراف حتى يرده

---

(١) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١٦.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٧.

الله إلى قصد![1]».. فأعداؤه، كما أعلن، هم طبقة المسرفين.

وعندما أخذ عمر في تعميم ثورته الاجتماعية إلى الأقاليم والأمصار:

* كتب إلى والي المدينة ـ أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ـ أن ينهض فيحصر كل جور حدث في العهود التي سبقت عهد الثورة، سواء أوقع ذلك الجور على مسلم أو غير مسلم، فيرفعه، ويرد الحق إلى أهله، فإن كانوا قد ماتوا رده إلى ورثتهم!.. «.. استبرىء الدواوين، فانظر إلى كل جور جاره من قبلي، من حق مسلم أو معاهد، فرده عليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم».

* وكتب بذلك إلى عامله على العراق، فلما استغرقت حقوق المظلومين ورد المظالم كل ما في بيت مال العراق بعث إليهم المال من الشام حتى يستوفي أصحاب الحقوق حقوقهم!..

وكان عمر يدرك أن تقادم العهد على حدوث الجور والظلم وذهاب الشهود بالموت أو الرحيل، والسلطان الأدبي للظلمة قياساً إلى ضعف المظلومين، كلّ ذلك يضعف من حجج المظلومين في طلب الحقوق، فتعوزهم الأدلة لإثبات حقوقهم

---

(1) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٩٢.

التي اغتصبها منهم الطغـاة، فكتب إلى عمالـه يطلب منهم مراعاة هذه الملابسات عند رد المظالم إلى أصحابها، وبعبارة القدماء: فإنه «كان يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، كان يكتفي بأيسر ذلك، إذا عرف وجهاً من مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة، لما كان يعرف من غشم الولاة؟![1]» . .

لقد كان يعلم ضعف المظلومين إزاء جبروت الظالمين، ويدرك بشاعة الجور الذي طالما طحن أصحاب الحقوق بعد أن حرموها، فكان الهدف الذي أعلنه: أن يحدث في الناس عدلاً بقدر ما أحدث الذين سبقوه من جور! . . ولقد عبر عن هذا الهدف عندما كتب إلى بعض عماله فقال له: «إن قدرت أن تكون في العدل والاحسان والاصلاح كقدر من كان قبلك في الجـور والعدوان والـظلم فافعـل، ولا حول ولا قوة إلا بالله. . .»[2]

* وكانت اليمن، قبل خلافة عمر، تحت ولاية محمد بن يوسف الثقفي ـ أخي الحجاج ـ فصنع فيها ما يقرب من جور الحجاج بالعراق. . ومن ذلك أنه فرض على المسلمين ضريبة «خراج» خلافاً لما استقر عليه الأمر في الاسلام من اسقاط

---

(١) المصدر السـابق. ج ٥ ص ٢٥٢.
(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٨٣.

«الخراج» عمن أسلم.. فطلب عمر إلى عامله على اليمن عروة بن محمد بن عطية السعدي إسقاط هذه الضريبة، والاكتفاء بضريبة «العشر»، ولما حدثوه عن الأثر السلبي لذلك على الأموال المجموعة لبيت المال، قال: «والله لئن لا تأتيني من اليمن غير حفنة كتم[1] أحب إلي من إقرار هذه الوظيفة (ضريبة الخراج)[2]!»..

ولما استشعر عمر أن عامله على اليمن يتلكأ في تنفيذ أهداف الثورة ورد المظالم ويتعلل بطلب الايضاحات والتفسيرات، كتب إليه معنفاً فقال: «أما بعد، فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني؟! ولا تعرف بعد مسافة ما بيني وبينك ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن أردد على مسلم مظلمة شاة، لكتبت: أرددها عفراء - (بيضاء) - أو سوداء! فانظر: أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني؟![3]»..

* وكتب عمر إلى عامله على الكوفة: عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب يأمره برد المظالم وتطبيق الثورة على أهل ولايته، وكان كتابه موجزاً لم يتعد سطراً واحداً: «أما

---

(١) الكتم: نبات يخضب به الشعر ويصنع منه مداد الكتابة.

(٢) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٨٧.

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨١.

بعد، فما بقاء الانسان بعد وسوسة شيطان وجور إنسان؟! فإذا أتاك كتابي هذا فاعط كل ذي حق حقه. والسلام!».. فلا بد من رد الحقوق لأصحابها، لأن الجور مثله مثل التردي في غواية الشيطان، يذهب بإنسانية الانسان؟!..

ولما كتب إليه عبد الحميد أن لديه، ببيت المال، ألف رأس كانت في ملك الحجاج بن يوسف، أمره ببيعها وقسمة أثمانها بين الناس..

ثم توالت إليه الكتب من الخليفة تضع له تفصيلات التطبيق لرد المظالم ورفع الجور عن الناس، مسلمين وغير مسلمين، ومنها كتابه الذي أمره فيه أن يسقط المغارم والهدايا والزيادات التي كان يأخذها الولاة السابقون من أرض الخراج، وذلك حتى يعالج ويداوي جراح الظلم التي أحدثها هؤلاء الولاة.. كتب إليه:

ومن عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى عبد الحميد. سلام عليك. أما بعد، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة جور في أحكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء. وان قوام الدين: العدل والاحسان. فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك، فإنه لا قليل من الاثم!. ولا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر. لا يؤخذ من العامر إلا وظيفة - (ضريبة) - الخراج، في رفق وتسكين لأهل الأرض. ولا تأخذن

في الخراج إلا وزن سبعة ليس فيها تبر، ولا إذابة فضة، ولا أجور الضرابين، ولا هدية النيروز[1] والمهرجان[2]، ولا ثمن الصحف، ولا أجور الفيوج[3]، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح. ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض. فاتبع في ذلك امري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه. وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة يحج بها. والسلام![4]».

فهو، هنا، يأمر عامله على الكوفة باسقاط أكثر من عشرة أصناف من الضرائب الجائرة التي استحدثها «عمال السوء» فجعلوها «سنة خبيثة» استنوها، وأرهقوا بها كاهل الناس.

* وكتب عمر إلى عامله على البصرة: عدي بن أرطاة، يأمره بأن يسقط عن الناس الضرائب والمغارم التي استحدثها ولاة السوء الذين سبقوه، مثل ضريبة: المائدة، والنوبة، والمكس.. وقال عن هذه الضريبة الأخيرة: «لعمري ما هو

---

(١) النيروز: عيد أول السنة، وهو عند الفرس: يوم نزول الشمس أول الحمل، وفي التقويم المصري (القبطي): أول شهر توت.

(٢) المهرجان: عيد فارسي يحل عند نزول الشمس أول الميزان.

(٣) الفيوج: مفردها: فيج، وهو رسول السلطان الذي يحمل كتبه.

(٤) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧١، ٢٧٦. و(تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٩. و(الخراج) لأبي يوسف. ص ٨٦.

بالمكس، ولكنه البخس الذي قال الله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[1] [2]. . .».

ولما بلغه أن عمال الخراج بالبصرة يحزرون ويتكهنون بمقدار غلة الأرض قبل نضج محصولها، فيقدرون المحصول بالظن، ويبالغون في التقدير، وأيضاً يفرضون للثمار أسعاراً منخفضة وتافهة قبل أن تقرر حركة الأسواق أسعار هذه الثمار، ثم يجنون الفرق بين تقديرهم وبين الأسعار الحقيقية، كتب إلى عدي بن أرطأة ينهاه عن ذلك، ويطلب إليه ابطال هذه التجاوزات، فقال: «بلغني أن عمالك يخرصون[3] الثمار على أهلها، ثم يقولونها بسعر دون سعر الناس الذين يتبايعون به فيأخذونها قرفاً[4]، على قيمتهم التي قوموها. . .» ونهاه كذلك عن تسليط الجباة على الناس يأخذون منهم العشر في الطرقات[5]. . .

ولما كتب إليه عدي بن أرطأة يحدثه عن أن من الناس من لا يستجيب لاداء ما عليه من الخراج إلا إذا «مسه شيء من

(١) البقرة: ٦٠.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٣.

(٣) الخرص: التكهن والحزر والحكم بالظن.

(٤) القرف: القشر، والمراد: القيمة التافهة.

(٥) فان فلوتن (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات) ص ٢٨. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.

العذاب!»، عجب عمر، بل وغضب، وكتب إليه محذراً أن يعذب إنساناً في سبيل الخراج، قال: «أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر، كأني جُنة - (وقاية) - لك من عذاب الله!.. إذا أتاك كتابي هذا، فمن أعطاك ما قبله عفواً، وإلا فأحلفه فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إلي من أن ألقاه بعذابهم[1]!

* وكتب عمر إلى ولاة الخراج الذين أرادوا، كي يزيد الخراج، أن يفرضوا الجزية على الذين دخلوا في الاسلام، كما كانت العادة التي استقرت قبل خلافته.. كتب إليهم مقبحاً رأيهم، وناهياً لهم عن هذا الظلم الشنيع الذي يريدون..

فعندما بعث إليه والي خراج مصر، حيان بن شريح، بأن «الاسلام قد أضر بالجزية» وأن أهل الذمة قد أسرعوا في الاسلام فنقصت الجزية، حتى لقد استدان لاتمام عطاء أهل الديوان! وكان يلمح برغبته في فرض الجزية على من أسلم.. كتب إليه عمر: «أما بعد، فقد بلغني كتابك. وقد وليتك وأنا عارف بضعفك! وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً!.. فضع الجزية عمن أسلم.. فإن الله إنما بعث محمداً، ﷺ، هادياً، ولم يبعثه جابياً[2]»!

(١) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١١٩.

(٢) المقريزي (الخطط) ج ١ ص ١٤٣. طبعة دار التحرير. القاهرة. و(طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٣.

وكتب بمثل ذلك إلى عامله على الكوفة، عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.. قال: «كتبت إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون، من اليهود والنصارى والمجوس، وعليهم جزية عظيمة. وتستأذنني في أخذ الجزية منهم. وإن الله، جلّ ثناؤه، بعث محمداً، ﷺ، داعياً إلى الاسلام، ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة، ولا جزية عليه..[1]»

هكذا.. وبهذا الموقف المبدئي والفكر الملتزم بالعدل واجه عمر ابن عبد العزيز تلك الرغبات الشريرة التي توالت عليه من مختلف الأقاليم والأمصار، تريد فرض الجزية على الذين دخلوا في الاسلام.. وهو بهذا الموقف العادل لم يكن يخفف فقط العبء المالي عن هؤلاء المسلمين الجدد، ولا يفتح فقط الأبواب الواسعة إلى الاسلام، بما يمثله من درجة راقية في التدين والاعتقاد الديني.. وإنما كان، أيضاً، وذلك هام وخطير، يفتح الأبواب للتآلف والانصهار والاندماج بين الذين ضمهم دين الاسلام، رغم الأصول العرقية والانتماءات القومية والحضارية التي كانت لهم قبل التدين بالدين الجديد، فلقد أزال، باسقاطه الجزية عمن أسلموا، حاجزاً كان يميزهم ويباعد بينهم وبين العرب وأبناء الذين سبقوا إلى الاسلام.

---

(١) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١٣١.

* ولقد كان عمر يعزل من عماله من لا يلتزم بالعدل الذي طلب له أن يشيع بين الناس.. فلم تكن مهامه تنتهي عند الاجتهاد في الاختيار للعمال، واصدار الأوامر والنواهي والكتابة بالمبادىء والتوجيهات... وإنما كان دائم الرقابة على أعمال هؤلاء العمال، يرسل الرقباء والمفتشين والمراجعين، ويكلف الثقاة الذين يستطلعون آراء العامة في تصرفات العمال..

ولما كتب إليه عامله على خراسان: الجراح بن عبد الله الحكمي يستأذنه في استخدام «السيف والسوط» لتأديب الناس، زاعماً أنهم أهل فتنة يقفزون إلى أحداثها قفزاً «فليس يكفهم إلا السيف والسوط!»... انتهره عمر بن عبد العزيز، ورد عليه: «يا ابن أم الجراح! أنت أحرص على الفتنة منهم! لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق، واحذر القصاص فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها..»

ولكن الجراح كان والياً همه بالمال وبيته أكبر من همه بالعدل وموازينه، فأراد الاستمرار على السنة الخبيثة لولاة السوء الذين سبقوه بأخذ الجزية من الذين دخلوا حديثاً في دين الاسلام.. ولما كتب إليه عمر: «انظر من صلى إلى القبلة فضع عنه الجزية» أراد أن يتعلل بأن الناس قد دخلوا الاسلام هرباً من

الجزية، وليس رغبة في هدى الدين الجديد، وأشار عليه بعض خاصة السوء أن يجعل «لصحة الاسلام» مواصفات منها «الختان»؟!.. فلما علم عمر بذلك، تعجب، وكتب إليه مقبحاً رأيه، ومنبهاً له على «أن الله، سبحانه، قد بعث محمداً، ﷺ، داعياً، ولم يبعثه خاتناً!»..

وأمام هذا الاعوجاج في سلوك الجراح طلب عمر إلى واحد من قراء خراسان الصالحين أن يقدم إليه تقريراً عن حال الولاية وصنيع الوالي مع الناس، فاستدعى أبا الصيداء صالح بن طريف وسأله عن ذلك فقال له: «يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً يغزون بلا عطاء ولا رزق! ومثلهم قد اسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج! وأميرنا عصبي - متعصب للعرب ضد الموالي» - جاف - (خشن) - يقوم على منبرنا فيقول: أتيتكم جافياً، وأنا اليوم عصبي! والله لرجل من قومي - (العرب) - أحب إلي من مائة من غيرهم!.. وبلغ من جفائه أن كم درعه يبلغ نصف درعه!.. وهو بعد سيف من سيوف الحجاج، قد عمل بالظلم والعدوان!..[1].

فلم يجد عمر بن عبد العزيز بدا من عزل هذا الوالي الذي أراد، في ظل الثورة الاجتماعية وعدلها المرجو، أن يسير في الناس بسيرة عمال السوء الذين سبقوا عهد هذا الخليفة العظيم..

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٨ - ٥٦٠.

* وفي سمرقند اشتكى الناس إلى واليها سليمان بن السري من الظلم الذي لحقهم عندما فتح بلادهم القائد قتيبة بن مسلم (٤٩ ـ ٩٦ هـ ٦٦٩ ـ ٧١٥ م).. وقالوا أن بلادهم قد فتحت «صلحاً» وأنهم قد دخلوا في إطار الدولة سلماً، ولم تفتح بلادهم «عنوة» بالسيف والقتال، ولكن قتيبة زعم أنه فتحها «عنوة» حتى تعامل أرضها معاملة الأرض المفتوحة عنوة فيطرد منها أصحابها وتوزع على الجند الفاتحين!.. وطلبوا من الوالي السماح لوفد منهم بالسفر للقاء أمير المؤمنين «لأن قتيبة قد غدر بنا، وظلمنا، وأخذ بلادنا. وقد أظهر الله العدل والانصاف ـ (بخلافة عمر بن عبد العزيز) ـ فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه، فإن بنا إلى ذلك حاجة!..» فأذن لهم الوالي بالقدوم على عمر، فاستقبلهم، وسمع شكواهم، وكتب إلى سليمان يطلب منه أن يعاد النظر، بواسطة القضاء، في موضوع شكوى السمرقنديين.. قال: «إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلماً أصابهم، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإن أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي، فلينظر أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة[1]!»

* وكانت حالة أهل سمرقند هؤلاء، ومثلها كثير، قد

---

(١) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٦٧، ٥٦٨.

طرحت على عدل عمر بن عبد العزيز قضية قديمة، ورثها ضمن ما ورث من سيئات القادة الذين فتحوا الكثير من البلاد في عهد الخلفاء الأمويين السابقين.. فلم تكن فتوحاتهم هذه لحماية الدعوة الاسلامية أو تأمين الدعاة إلى الاسلام، لأنها كانت لبلاد لا تمثل أي خطر على الدين الجديد والداعين إلى عقائده.. وأكثر من ذلك فإن هؤلاء القادة الفاتحين لم يكونوا دعاة إلى الاسلام، وإنما كانوا باحثين عن الأرض والمغانم والثروة والثراء، ولم يكن بهم أدنى حرص على دخول أهل البلاد المفتوحة إلى الدين الجديد، بل كان حرصهم الأول والأخير على الجزية والخراج، حتى لقد استمروا يحصلون الجزية والخراج، من الذين اسلموا، وكأن الاسلام لا يعني شيئاً في الموضوع!..

وكان على عمر بن عبد العزيز أن يعالج، بعدله وثورته، أمر الفتوحات التي استهدفت وتستهدف الفيء والغنيمة لكسب المؤمنين بالدين.. لأن الايمان، وهو تصديق بالقلب ويقين باطني، لا يمكن تحصيله بالقوة أو كسب الأنصار له بالسيف والقتال!.. لقد آمن عمر بن عبد العزيز أن كسب المؤمنين بالدين الجديد سبيله الدعوة إلى سبيل الله بالتي هي أحسن، بالقدوة الطيبة وتقديم العدل الذي افتقده الانسان وطال إليه شوق الناس.. وليس بالفتح والجزية والخراج.. ومن هنا جاءت خطوته غير المسبوقة عندما أوقف، فور توليه الخلافة، هذا اللون من الفتوحات.. فلقد أصدر أمره إلى الجيش

الغازي، بقيادة عبد الرحمن بن نعيم، لبلاد ما وراء النهر بالرجوع من تلك البلاد، ولقد جاء في كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم قوله: «.. اللهم إني قد قضيت الذي علي، فلا تغز بالمسلمين، فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم![1]».. وكذلك بعث بأمر مماثل إلى مسلمة بن عبد الملك (١٢٠ هـ ٧٣٨ م) وهو بأرض الروم، يأمره بالرجوع منها بمن معه من المسلمين، بل وبعث لهذا الجيش بالخيل والطعام كي يعينه على الرجوع إلى بلاد الاسلام![2].

وفي الوقت الذي أوقف فيه فتوح البلدان بالغزو والقتال وجه الكتب والدعاة يدعون إلى الاسلام، بالسلم، والقدوة، والنموذج العادل الذي يمثل مركز جذب للقلوب والعقول.. فدخل الناس في الاسلام، ولم يطلب من هؤلاء الذين اسلموا خراجاً، على حين كان الفتح والغزو، فيما مضى، لا يثمر سوى الخراج، حتى من الذين دخلوا في الدين الجديد!.. لقد كتب عمر إلى ملوك السند «يدعوهم إلى الاسلام والطاعة على أن يملكهم، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وكانت قد بلغتهم سيرته ومذهبه، فاسلموا، وتسموا بأسماء العرب[3]!».. وكذلك كتب إلى البربر، بالشمال الأفريقي،

---

(١) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٦٨.

(٢) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٥٣.

(٣) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٨٣، ٢٨٤.

فدخلوا في الاسلام، وعندئذ وضع عنهم الجزية، وكانوا يدفعون أبناءهم جزية، بدلاً من المال، في عهد الخلفاء الذين سبقوه[1]!

* وشدد عمر بن عبد العزيز في منع «السخرة» واستغلال عمال الدولة لنفوذهم.. حتى ليحكي عامل البريد «ربيعة الشعوذي» أن دابة البريد قد انقطعت به في مكان من أرض الشام، وهو في طريقه إلى الخليفة «بخناصرة»، فسخر لركوبه دابة من دواب الرعية، فلما علم بذلك عمر استنكر فعلته، وقال: «تسخر في سلطاني؟!» ثم أمر به فضرب أربعين سوطاً[2]!..

وكتب إلى عماله وولاته بمنع الجباة الذين احترفوا جباية الضرائب والمكوس عند المعابر وعلى الجسور، لما ثبت له تعديهم للحدود العادلة، وعين في كل مدينة رجلاً من أهلها يجمع منهم الزكاة[3]..

ونهى عماله أن يأخذوا زكاة أرباح التجار إلا إذا حال الحول - (مضى العام) - على هذه الأرباح[4]..

---

(١) المصدر السابق. ص ٢٨٥.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٦.

(٣) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٩.

(٤) (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام. ص ٥٦٩. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

وكان من عمال الدولة من يتقاضى أجراً من مصدرين، مع العامة، كواحد من أصحاب العطاء، ومع الخاصة، كعامل من عمال الدولة.. فكتب عمر إلى الولايات بإبطال هذا الازدواج، وقال للولاة: «أما بعد، فلا تخرجن لأحد من العمال رزقاً في العامة والخاصة، فإنه ليس لأحد أن يأخذ رزقاً من مكانين، في العامة والخاصة، ومن كان أخذ من ذلك شيئاً فاقبضه منه ثم ارجعه إلى مكانه الذي قبضه منه. والسلام[1]!». أي أنه منع الجمع بين «مرتبين ودخلين» للفرد الواحد، وأبطل ذلك بأثر رجعي!».

وكان الولاة والخلفاء، قبل عمر بن عبد العزيز، يستخدمون فروق الدنانير والدراهم في استغلال الناس، فطلب عمر علاج ذلك، ولمصلحة الفقراء، فكتب إلى القائم على دار «سك النقود» - (بيت الضرب) - بدمشق يقول له: «.. ومن أتاك من فقراء المسلمين بدينار ناقص فأبدله له بوزان![2]».

ومنع العمال الذين يجمعون الزكاة والصدقات من الاستئثار بميزات الأموال التي يجمعون صدقاتها، فأمر أن تقسم هذه الأموال، عند أخذ صدقاتها، ثلاثة أقسام، يختار صاحبها قسمان، ثم يأخذ العمال صدقاتها من الثلث الأخير[3]!..

---

(1) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٨.

(2) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٦.

(3) (الأموال) لأبي عبيد. ص ٥٥٦.

* وكان الوضع قد استقر منذ فتحت المجتمعات الزراعية الرئيسية ـ مصر والشام والعراق وفارس ـ على عهد عمر بن الخطاب على أن تظل أرضها بأيدي أصحابها الأصليين، مقابل دفعهم عنها ضريبة «الخراج»، مع انتقال ملكيـة الرقبة في الأرض إلى بيت مال المسلمين، أي إلى مجموع الأمة، بأجيالها كلها، الحاضرة منها والآتية. . وكان مقتضى هذا التنظيم ألا تباع هذه الأرض، وألا تنقل من ضريبة «الخراج» إلى ضريبة «العشر» المقررة على أرض العرب المسلمين، وهي أقل من ضريبة «الخراج». . ولكن أشراف العرب وساداتهم، وخاصة في ظل الدولة الأمويـة أخذوا في شراء الأرض الخراجيـة، وصاروا يدفعـون عنها ضـريبة «العشـر» فقط، الأمر الـذي أضعف ايراد الدولة من ضريبة الخراج، وأضر بأهله من سكان البلاد الأصليين، وزاد من ثراء الأشراف والسـادة العرب، والقرشيين منهم على وجه الخصوص، وزاد الطين بلـة أن هؤلاء السادة الملاك لم يكونوا يفلحون الأرض بأنفسهم، وإنما كانوا يمارسون فيها علاقات الانتاج الاقطاعية كملاك كبار! . .

ولقد امتدت ثورة عمر بن عبد العزيز إلى هذا الميدان، فأمر أن تظل الأرض الخراجية بأيدي الفلاحين من أهل البـلاد الأصليين، ومن أسلم من هؤلاء وأراد الانتقال إلى المدن التي نشأت في هذه البلاد لسكنى الجيوش العربية وغدت المجتمعات الاسلامية فيها فلا يحق له الاحتفاظ بما كان بيده من الأرض، أو نقلها من «خراجية» إلى عشرية»، بل عليه أن يتركها لمن لا

يزالون على ارتباطهم واستقرارهم في قراهم: «أيما قوم صولحوا على جزية، فمن أسلم منهم كانت أرضه لبقيتهم[1]..»، وبمعنى آخر، ولغة حديثة: أمر عمر بن عبد العزيز أن تظل الأرض الخراجية بيد من يفلحونها.. وكذلك منع تملك العرب لها منذ سنة ١٠٠ هـ[2].. أما الذين تملكوا مساحات منها قبل خلافة عمر بن عبد العزيز فإنه قد فرض عليهم ضريبة مزدوجة: جزية الأرض (أي خراجها) وكذلك «العشر».. «ومن أخذ أرضاً بجزيتها لم يمنعه أن يؤدي عشر ما يزرع، وإن أعطى الجزية... عليه العشر مع الخراج..»[3]

وفي الوقت الذي كان عمر يقرر فيه هذا «الازدواج» الضريبي على أشراف العرب وسادتهم الذين تملكوا، قبل عهده، أرض الخراج، كان يعالج بعدله ويخفف المظالم التي أثقلت كاهل أهل الخراج، فلقد أسقط عنهم الكسور التي تراكمت من فروق العملات[4]..

وفي الوقت الذي منع فيه بيع أرض الخراج، كي تظل ملكاً لمجموع الأمة، وحتى لا تنتقل ملكية الأرض للذين لا

---

(١) المصدر السابق. ص ٢٢٧.

(٢) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٧١، ٢٩٣.

(٣) (الأموال) لأبي عبيد. ص ١٢٧.

(٤) الماوردي (الأحكام السلطانية) ص ٨١.

يفلحونها، أحيا المبدأ الاسلامي الذي يمجد العمل، ويرى فيه المعيار الذي يعطي الأشياء قيمتها، فشجع الناس على إحياء الأرض الموات، لأن من أحيا أرضاً مواتاً فهي له، واستنفر الناس إلى إزالة المياه التي تغمر الأرض فتحول دون زراعتها، لأن نزع الماء من الأرض هو بمثابة إحياء لها..[1].

* ولم تقف ثورة عمر وعدالته عند حدود المسلمين، بل شملت الرعية على اختلاف العقائد والأديان، فعندما ثارت شبهات يريد أصحابها إخراج المجوس من إطار (أهل الكتاب) المتدينين بدين يعترف به الاسلام، ومن ثم إخراجهم من دائرة روابط (المودة) التي تحكم علاقات المسلمين بأهل الكتاب، وبالتبعية ترتيب واجبات سياسية وعقائدية ومالية لا تترتب على أهل الكتاب، عندما ثارت هذه الشبهات استفتى عمر بن عبد العزيز الحسن البصري في الأمر، فأفتى بأن الرسول، ﷺ «قد قبل من مجوس أهل البحرين الجزية، وأقرهم على مجوسيتهم.. ثم أقرهم أبو بكر، ثم عمر وعثمان..»[2].. فهم كأهل الكتاب لهم ما لهم من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات.

وكتب عمر إلى عماله أن يرفعوا المعاناة عن الذين يعانون قسو العيش من أهل الكتاب.. وأن يكفل لهم بيت المال عيشاً

---

(١) (الأموال) لأبي عبيد. ص ٤٠١، ٤٠٢.

(٢) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١٣٠، ١٣١.

كريماً . . وفي كتابه إلى عامله على البصرة، عدي بن أرطـأة، يقول له : «أما بعد، فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم، وليس له مال، فانفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه[1] . .» فلا فـرق ولا تفرقـة هنا بـين المسلمـين وغيرهم فيما تتطلبـه حياة الانسـان الكـريمـة من معاش . .

وكذلك أمر بإلغاء الزيادات التي زيدت، قبل عهده، فيما صولح عليه أهل الكتاب، في «أيلة» و«قبرص» وغيرهما من البلاد[2] . .

* وصدرت أوامر عمر إلى ولاته بالرفق بالناس، ونهى عن التعذيب في استخلاص الحقوق، وحذر من « التمثيل» بأحد، حتى ولو كانت «المثلة» جر الرأس أو جذب اللحية[3]!، وذلك بعد أن بلغت «المثلة» والتعذيب، قبل عهده، حداً فاق في بشاعته الأساطير!. . .

بل لقد التفت عمر بعدله فشمل به المسجونين!. . فنهى عن قيد المسجونين بالسلاسل التي تعوقهم عن أداء فرائض الله، وأمر ألا يبيت مسجون في قيده، إلا أن يكون مطلوباً في

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٠ .
(٢) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٩١ .
(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٠ .

قصاص قتل، فيخشى منه الهرب وضياع القصاص.. وطلب أن يتعهد الولاة طعام المسجونين، فيجرون عليهم من الصدقات ما يصلح أمرهم في «الطعام والأدام»[1].. وأن يتعهدوا المرضى منهم، وخاصة من لا أهل له ولا مال.. وطلب الفصل، في السجون، بين المخنثين الخبثاء من أهل الشذوذ، وبين غيرهم من أهل الجرائم غير الجنسية.. كما شدد على ضرورة افراد النساء بسجن خاص.. ونبه ولاته وعماله على ضرورة الاختيار الحسن لمن يعهد إليهم بالإشراف على السجون: «.. وانظر من تجعل على حبسك من تثق به، ومن لا يرتشي، فإن من ارتشى صنع ما أمر به!».. وأكثر من هذا طلب إلى الولاة أن يجلسوا كل يوم سبت، من كل أسبوع، فيعرض عليهم المسجونون للتفتيش على أحوالهم، والنظر فيما عساه يكون لهم من شكاوى أو ظلامات![2]..

* ولقد امتدت الثورة الاجتماعية لعمر بن عبد العزيز فشملت الجوانب الأخلاقية في المجتمع، واشتهرت أوامره في هذا الميدان حتى أغنت شهرتها عن الإفاضة في اخبارها.. فهو قد شدد في منع الخمر، وأمر «بزقاقها» فشققت، و«بقواريرها» فكسرت.. ونهى غير المسلمين، الذين كانوا يتجرون فيها، عن ادخالها مدن المسلمين ومواطن سكناهم[3]..

(١) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١٥٠.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٦٩.

وطلب إلى الرجال الذين يرتادون الحمامات ألا يدخلوها عراة، فأمر أن يتخذ كل مرتاد لها «مئزراً» يأتزر به، ستراً للعورة.. ونهى النساء من ارتياد هذه الحمامات[1]..

هكذا امتدت الثورة الاجتماعية لعمر بن عبد العزيز.. بدأت بذات الخليفة عندما طبق مبادئها، في رد المظالم، على نفسه قبل سواه.. وبزوجه وولده، قبل بيوت الآخرين.. وبأمراء بني أمية وأميراتها.. ثم انطلقت شرارتها إلى الأقاليم والأمصار، ترد المظالم وتعيد الحقوق وتداوي الجراح التي استبدت بجسد الأمة طوال العهود التي سبقت عهد هذا الخليفة الصالح الثائر العظيم..

ولقد صدق القدماء عندما قالوا: «إنه لم تكن همة عمر ابن عبد العزيز إلا:

* رد المظالم..

* والقَسْم بين الناس!..[2].

وعندما قالوا: ان كتبه إلى عماله وولاته على الأمصار والأقاليم ما كانت لتخلو من:

* رد مظلمة من غاصبها إلى صاحب الحق فيها..

---

(1) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٦٣.
(2) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١٦.

* أو إحياء سنة حسنة أماتها الذين سبقوه..

* أو إطفاء بدعة سيئة أحياها المتقدمون عليه..

* أو قسم في الأموال بين الناس بالعدل..

* أو تقدير عطاء يعين بتقديره الولاة والعمال على العدل بين أصحاب العطاء..

* أو خير ينصح به ويدعو إليه الولاة وعامة الناس..

كان ذلك دأبه ودأب كتبه، منذ تولى امارة المؤمنين «حتى خرج من الدنيا»[1] راضياً مرضياً.

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٤ ص ٢٥٢.

ورجل الدولة

[إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها:

- فالوالي ركن..
- والقاضي ركن..
- وصاحب بيت المال ركن..
- والركن الرابع أمير المؤمنين؟!..]

عمر بن عبد العزيز

عجيب أمر هذا الاتفاق في الحكم المعادي لعمر بن عبد العزيز بين كل من أمراء بني أمية الذين تصدوا لإجراءاته الاجتماعية الثورية، وزعموا أنه قد حرمهم من الخير الذي أسبغه عليهم الخلفاء الذين سبقوه، ومنع عنهم ما زعموه حقاً لهم مقرراً ومكتسباً، حتى بلغ بهم المطاف في التصدي والاعتراض إلى الحد الذي دسوا فيه السم لهذا الخليفة العادل الصالح فمات في ريعان شبابه، وقبل أن يقضي كل وطره في العدل والاصلاح.. عجيب أن يتفق مع هؤلاء الأمراء، في إدانة عمر بن عبد العزيز، عدد من المستشرقين، أبناء الحضارة الأوروبية الرأسمالية، الذين زعموا أن الاصلاحات المالية والتغييرات الاقتصادية الجذرية التي أحدثها قد أضعفت «الدولة» الأموية، وعجلت بزوالها، وأن إزالته لمظالم الولاة الذين سبقوه ـ ومنهم الحجاج بن يوسف ـ قد أنقصت إيرادات «الدولة»، ففتحت الباب لزوال حكم الأمويين!..

ورغم غرابة هذا الاتفاق ضد إصلاحات عمر بن عبد

العـزيز، إلا أن فهم دوافعـه ليست بالأمـر المستعصي على الكشف والتحليل..

أما دوافع أمراء بني أمية، فواضحة مفهومة.. فهم قد احتازوا مظالم، وامتلكوا اقطاعات، وتمولوا أموالاً، واقتنوا تحفاً ونفائس، رآها عمر: مظالم مغتصبة ومنتزعـة من نهر الثروة الأعظم والعام، فانتزعها منهم وردها إلى مجموع الأمة: صاحبة هذا النهر الأعظم والعام.. ولقد عاملهم، في هذه القضيـة، معاملته لنفسه، عندما رد إلى بيت المال ما في حيازته، وقال: «ان أهلي أقطعـوني ما لم يكن لي أن آخـذه، ولا لهم أن يعطونيه![1]..».

أما المستشرقون الذين حملوا إصلاحات عمر وثورته مسؤولية إضعاف «الدولة» الأموية، وفي مقدمتهم:

* البارون النمساوي: الفريد فون كريمر.

(ALFRED VON KREMER) (١٨٢٨ - ١٨٨٩ م).

* والألماني: أوجست موللر.

A. MULLER (١٨٤٨ - ١٨٩٢ م).

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ج ٥ ص ٢٤.

فإنهم ينطلقون من منطلق فكري ومناخ حضاري تمثل في الحضارة الغربية الرأسمالية، التي وصلت في تبرير الاستغلال إلى حد الاستعمار، وأيضاً، وذلك هام جداً، من مناخ الفكر الألماني الذي يمجد «الدولة»، كدولة، ويرى فيها المطلق الذي تنضوي تحته الأجزاء، والكل الذي تخضع له التفاصيل.. وهو مناخ ومزاج طبع الفكر الألماني منذ هيجل (HEGEL) (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) حتى بسمارك (BISMARCK) (١٨١٥ - ١٨٩٨ م) وتأثر به هؤلاء المستشرقون.. ولهذا كانت مظالم الحجاج بن يوسف والضرائب الظالمة التي وظفها على الموالي وغيرهم إجراءات واقعية تتطلبها سلطة «الدولة» على حين كان عدل عمر بن عبد العزيز، وإلغاؤه للجور والعسف ورده للمظالم سياسة غير حصيفة، أضعفت «الدولة» وعجلت بزوالها[1]. وهي في أخف الأحكام، عند المستشرق الهولندي فان فلوتن (VAN G. FLOTEN) (١٨٦٦ - ١٩٠٣ م) سياسة أملتها «الرجعية والمحافظة الدينية» التي جعلت عمر بن عبد العزيز يتمسك تمسكاً شديداً «بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب.. رغم ما كانت تتطلبه الحال من العدول عن ذلك النظام عدولاً

---

(١) آراء هذين المستشرقين مبسوطة في كتاب: كريمر (تاريخ حضارة المشرق) ج ١ ص ١٧٤ وما بعدها. وكتاب: موللر (تاريخ الاسلام في المشرق والمغرب) ج ١ ص ٤٣٩ وما بعدها، انظر عنها: (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٦٣ وما بعدها.

تاماً!» ويمضي فان فلوتن فيقول: «ان سياسة عمر بن عبد العزيز كانت أبعد أثراً في وهن العرش الأموي من سياسة الحجاج ابن يوسف وسوء إدارته!»...

فالدفاع هنا عن «العرش»، والحرص منصبّ على «الدولة».. أما الجماهير التي استفادت من العدل، فليس لها كبير اعتبار!.. بل ان فان فلوتن يلمس القضية بصراحة عندما يقول: «ان الآمال التي أثارتها إجراءات عمر بن عبد العزيز في النفوس لم تنطفىء جذوتها، حتى أصبحت الشعوب تنتظر خلاصها من حكم بني أمية!»[1]

إذن فنحن أمام منطق يحرص أصحابه على «الدولة» القوية و«العرش» المستقر، حتى لو اعتمدت أسسها واستقرت قوائمها في الظلم والجور وسوء الادارة!.. ويرى أصحاب هذا المنطق أن الاصلاحات التي تثير جذوة الآمال في النفوس والطموح للعدل عند الأمم، مما يقوض «الدولة» أو يضعف «العرش» هي أمور سلبية، وقع فيها عمر بن عبد العزيز!..

وإذا كان ذلك كافياً في فهم منطق هؤلاء المستشرقين، الذين كانوا أبناء بررة للحضارة الرأسمالية الأوروبية وللمناخ

---

(١) (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) ص ٥٩، ٦٠.

الفكري والمزاج السياسي الذي يقدس «الدولة» و«النظام»..
فإن الأمم والشعوب، بالطبع، لها منطق آخر ومنطلق مغاير للمنطق والمنطلق اللذين وقفا خلف حكم هؤلاء المستشرقين على ثورة عمر بن عبد العزيز..

فـ «الدولة»: جهاز حكم تقيمه الأمة كي يلبي مطالبها ويحقق احتياجاتها، فإذا لم يحقق تلك الغاية، وتحول إلى الضد، فلا بأس. بل لا بد من التغييرات التي تفتح الطريق لآمال جديدة في «دولة» جديدة تكون أجدر وأقدر على تحقيق الأهداف «فالأمة» هي الأصل، «والعدل» هو الغاية، بل انه وسيلة لغاية أكبر هي سعادة الانسان، ومن ثم فإن «رسوخ الدولة» أو إهتزاز قوائمها ليس المعيار في الحكم بالصواب والخطأ على الاصلاحات والتغييرات..

* * *

ثم.. هل حقاً أضعفت الاصلاحات الاقتصادية الجذرية التي أجراها عمر بن عبد العزيز مالية الدولة الأموية فعجلت بانهيارها؟!..

لننظر.. وسنجد أن هؤلاء المستشرقين قد جانبهم الصواب في «الوقائع» كما جانبهم في «التحليل»!..

* فالدولة الأموية عاشت بعد حكم عمر بن عبد العزيز

ثلاثين عاماً، وعندما انهارت أمام الثورة العباسية لم يكن انهيارها من قلة في المال أو خواء في بيته، فكل العروش التي انهارت والدول التي احتضرت قد خلفت وراءها من الكنوز والبذخ والثراء ما افتقرت لعشر معشاره الدول الشابة التي قامت على أنقاضها!.. لقد انهارت الدولة الأموية تحت مطارق الثورات ـ (هاشمية، وخوارج، ومعتزلة) ـ التي انتشرت على امتداد أقاليمها وأمصارها.

* وهذه الثورات لم تكن وليدة الآمال التي فجرتها إصلاحات عمر بن عبد العزيز.. فمن قبل حكمه كانت للشيعة ثورات، وللخوارج ثورة مستمرة، وللمعتزلة مشاركات في الثورة على الأمويين.. وفترة حكم عمر كانت الاستثناء في العهد الأموي كله، إذ فيها قام «السلام العام» فالتقطت الدولة أنفاسها وانجزت ما أنجزت من إصلاحات.. لم تخلق، إذن، إصلاحات عمر الآمال لدى الجماهير، بعد أن كانت معدومة، وإنما هي قد أثبتت أن من بني أمية أيضاً، خلفاء يمكن أن يكونوا معقد الآمال؟!.. وهذا أمر في صالح الأمويين، وليس ضدهم..

* لقد تولى الحكم بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥ هـ ٧٢٠ ـ ٧٢٤ م) فارتد بالنظام المالي والاجتماعي إلى ما كان عليه قبل حكم عمر.. عزل الولاة، وانتزع الحقوق التي وزعت، وأعاد الضرائب التي ألغيت ومنها

ضريبة الخراج على الذين أسلموا، وقال لعامله على اليمن: «خذها منهم ولو صاروا حرضاً ـ (ساقطين من الهزال عاجزين عن النهوض)![1]».. فلو كانت هذه المظالم قوة «للدولة»، فها هي قد عادت، ولا تبعة إذن على إصلاحات عمر في ضعف الدولة وزوالها!

* وأخيراً، فإن ثورة عمر بن عبد العزيز وعدله وما أحدث في المال والاقتصاد من تغييرات لم تنقص مالية الدولة ولم تفقر بيت المال، ولقد تعلق المستشرقون الذين ظنوا ذلك، وبنوا أحكامهم على هذا الظن بنتف واهية من الأخبار..

صحيح أن المال قد نفد من بيت مال العراق سداداً للحقوق ورداً للمظالم.. ولكن هذا النقص قد جبر من بيت مال الشام[2].. ثم أن التعلق بخبر كهذا وواقعة كتلك لا يصلح أساساً تصدر عنه الأحكام على مالية الدولة في عهد عمر بن عبد العزيز:

* فالأرض الخراجية التي امتلكها الأشراف العرب، والتي كانت تدفع ضريبة «العشر» فقط، جعلها عمر تدفع «العشر» و«الخراج»، وهو الضريبة الأساسية على الأرض بعد أن كان

---

(١) ابن خلدون (العبر) ج ٣ ص ٧٦ طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ.
(٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٥٢.

في تناقص مستمر بسبب تحول الأرض الخراجية إلى ملكية هؤلاء الأشراف!

* والحقوق التي حصلت عليها الجماهير بعدل عمر لا بد وانها قد أطلقت طاقاتها المنتجة من عقالها، فلقد أحيت آمالها وأذكت طموحاتها عندما أصبح العائد والثمر مضموناً للعاملين!

* وإلغاء الدخول المزدوجة لعمال الدولة - (العطاء + المرتب) - قد أحدث وفراً في بيت المال..

* وهذه الثروات غير المحدودة التي سبق وانتزعت من بيت المال فحازها الأمراء والسادة والأشراف والأثرياء - (اقطاعات، واموال، وتحف ونفائس.. الخ..) لا بد وان تكون قد انعشت مالية البلاد!..

* والمناطق والمرافق التي كانت حكراً للدولة - (حمى) - والتي كانت الاستفادة بها وقفاً على قلة من الأمراء والخاصة قد أصبحت عامة لأبناء الأمة - وكان من بينها مراع وجزائر[1] - وهذه الإباحة لا بد وأن تكون قد أسهمت في الرخاء العام، الذي ينعكس بدوره في الزكاة والضرائب التي تصل إلى بيت المال..

بل ان الوقائع التي تذخر بها مصادر التاريخ لتؤكد أن

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٧، ٢٨١.

واقعة نفاد الأموال من بيت مال العراق سداداً للحقوق، إنما كانت أمراً موقوتاً، ولم يكن نقصاً في إيراد بيت المال بالعراق، ولا دليلاً على ضعف مالية البلاد..

فعمر بن عبد العزيز يكتب إلى واليه على العراق، عبد الحميد ابن عبد الرحمن، يطلب منه أن يخرج إلى الناس أعطياتهم.. فيجيبه الوالي: «إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال» فيكتب إليه عمر طالباً منه أن ينهض بسداد ديون المدينين، الذين استدانوا في غير سفه ولا إسراف، سداد ديونهم من بيت المال.. فينهض الوالي بذلك، ويكتب لعمر ثانية أن بيت المال ما زال عامراً.. فيطلب إليه الخليفة أن يزوج من ليس له مال ظاهر، من بيت المال!.. فينفذ الوالي، ويكتب لعمر مرة أخرى: «إني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال!».. فيكتب إليه الخليفة: «انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين؟!»[1].

هذا هو حال بيت مال العراق، على وجه الخصوص، ينهض بأعطيات الناس، وسداد ديون المدينين، وتزويج الراغبين في الزواج ممن ليس لهم مال ظاهر، ثم تخرج منه

---

(١) (الأموال) لأبي عبيد. ص ٣٥٧، ٣٥٨.

«سلف إنتاجية» لإعانة الفلاحين على استغلال الأرض. لأن الدولة تخطط لمستقبل هذه الأرض البعيد.. وبعبارة عمر: أسلفهم ما يقوون به على عمل أرضهم «فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين!»..

وأكثر من هذا فإن مصادر التاريخ تثبت أن خراج العراق كان على عهد عمر بن عبد العزيز أعظم منه على عهد الحجاج!.. فلقد بلغ في عهد الحجاج ١١٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم «بغشمه وخرابه[١]» بينما أصبح على عهد عمر بن عبد العزيز ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم «بعدله وعمارته».. والمؤرخون يرجعون هذه الزيادة إلى «عدل عمر وعمارته»[٢]..

---

(١) أي ان الحجاج جمع هذا الخراج «بالغشم» وهو العسف والجور وسوء التقدير وفساد الادارة.. كما جمعه من «الأرض الخراب»، أي غير العامرة، فلقد كان الولاة قبل خلافة عمر بن عبد العزيز يفرضون على الأرض «الخراب» غير المنتجة، خراجاً يجمعونه من الأرض «العامرة» التي تزرع. ولقد سبق أن أشرنا إلى إبطال عمر بن عبد العزيز لهذا الظلم ضمن ما أحدث في الولايات من تغييرات.

(٢) الماوردي (الأحكام السلطانية) ص ١٧٥. ويؤيد زيادة خراج العراق على عهد عمر بن عبد العزيز: ابن خرداذبة في (المسالك والممالك) ص ١٤ طبعة ليدن سنة ١٨٨٩ م. وابن رستة في (الأعلاق النفيسة) ص ١٠٥ ط. ليدن سنة ١٨٩١ م. والمقدسي في (أحسن التقاسيم) ص ١٣٣ ط. ليدن سنة ١٨٧٧ م. وابن عساكر في (التاريخ الكبير) ج ٤ ص ٨٠ طبعة روضة الشام سنة ١٣٣٢ هـ.

ونشير نحن إلى دور «السلام العام» في هذه الزيادة والنمو المالي، بالعراق وغيره، فلقد كانت الثورات المستمرة تضعف من طاقة البلاد الاقتصادية، الأمر الذي كان ينعكس على الأموال المجموعة في مسارح الثورات ومناطق القتال، وفي مقدمتها أرض العراق..

فلم يضعف العدل أبداً «الدولة» على عهد عمر بن عبد العزيز، ولم ينقص ماليتها.. لقد ضعفت «دولة» العسف والجور، بل زالت.. ونقصت «الأموال» المغتصبة، بل انتزعت من مغتصبيها.. ولكن الروح قد عادت إلى «دولة» العدل، و«الأموال» قد جرت بيد العاملين المنتجين، عرباً كانوا أم من الموالي، مسلمين كانوا أم غير مسلمين.

وهذا الحوار الذي دار بين عمر بن عبد العزيز وبين عامل من عماله على الخراج يجسد هذا المعنى الذي نقول.. دخل العامل على عمر، فسأله:

- كم جمعت من الصدقة؟

- كذا وكذا.. (مبلغاً حدده).

- فكم جمع الذي قبلك؟

- كذا وكذا (مبلغاً أكبر مما جمعه هو).

- من أين ذاك؟!

ـ يا أمير المؤمنين، إنه كان يأخذ من الفرس ديناراً، ومن الخادم ديناراً، ومن الفدان خمسة دراهم، وإنك طرحت ذلك كله!

ـ لا والله، ما ألقيته، ولكن الله ألقاه؟![1] . .

ـ لقد نقصت المظالم، وضاعت أعيانها . . ولكن العدل، هو الآخر، كانت له ثمار أعظم وأكثر منها!

بل إننا نلمح في فكر عمر بن عبد العزيز السياسي، كرجل دولة، ما يضيف بعداً جديداً اضافته تجربته إلى مفهوم الدولة، ومكان منصب الخليفة وسلطانه من بنيتها . . فقبل عمر كان الخليفة هو الآمر الناهي، وكان سلطانه هو السلطان الأوحد في جهازها . . أما عمر، فلقد عرفنا تجربته في الشورى ومجالسها أيام كان والياً على المدينة . . ولما ولي الخلافة كان له مستشارون يعاونونه في شؤون الدولة، وكانت له بهم اجتماعات منظمة، لها تقاليد مرعية ومقررة . . وبعبارة القدماء: « . . لقد كان له سمار ينظرون في أمور الناس، وكان علامة ما بينه وبينهم إذا أراد القيام أن يقول: إذا شئتم؟![2] » وأيضاً فلقد نظر عمر إلى منصب الخليفة كركن واحد من أركان أربعة يقوم عليها بناء جهاز الدولة، فقال في كتابه إلى عقبة بن زرعة عامل الخراج على خراسان . . « . . إن للسلطان

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق: ج ٥ ص ٢٨٢ .

أركاناً لا يثبت إلا بها:

* فالوالي ركن..
* والقاضي ركن..
* وصاحب بيت المال ركن..
* والركن الرابع أنا[1]..

فهو واحد من الأركان، وليس، كما كان من سبقه، كل الأركان!..

ولعله كان يريد التأكيد على تميز سلطان كل ركن من هذه الأركان كي لا يذوب في الآخر، وخاصة في الركن الرابع! فحرص على أن يذكر الناس ويؤكد لهم أن الخليفة هو «منفذ» للشريعة والقانون، وليس «قاضياً»، لأن القاضي، في جهاز الدولة ركن متميز وسلطة مستقلة عن سلطة «المنفذ»: أمير المؤمنين. ففي خطابه الذي حدد فيه، أمام الناس سلطاته وسلطاته، قال: «.. ألا واني لست بقاض، ولكني منفذ.. الا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق... إلا أن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص، ولكن الإمام الظالم هو العاصي!..»[2].

لقد كان رجل دولة، أضاف إلى مفهومها، على عهده، بعداً جديداً، كما كان إمام عدل وانصاف..

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٨.

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٥.

وبدأت الدولة تعطي

[أيها الناس.. من يبلغنا منكم حاجته، سددنا من حاجته ما قدرنا عليه... حتى يستوي عيشنا وعيشكم... ومن كانت عليه أمانة، لا يقدر على أدائها، فأداؤها من مال الله.. ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها، فصداقها من مال الله؟!..]

عمر بن عبد العزيز

وبعد أن كانت المظالم تثقل كاهل الناس، وجهاز الدولة ـ (خلفاء وأمراء وولاة وعمالاً) ـ يستأثرون بالجبايات والضرائب والمكوس والصدقات.. تحول جهاز الدولة، بثورة عمر ابن عبد العزيز وعدله، إلى مصدر للعطاء، والعطاء المنظم، لإعطاء الهبات والمنح والاقطاعات؛ كما كان يفعل الذين سبقوه للأنصار والشعراء والمرائين..

وكانت نظرة جهاز الدولة، وعلى رأسه الخليفة، إلى حقوق الناس في المال محكومة بالفلسفة التي قررها عمر، والتي استرشد فيها بروح الاسلام، فلسفة المساواة بين الناس، في حدود الاحتياجات والضرورات والامكانيات، لا فرق في ذلك بين عربي ومولى، مسلم أو غير مسلم، حاكم أو محكوم..

فعمر يخطب الناس في «خناصرة»[1] محدداً ومؤكداً فلسفة المساواة هذه فيقول: «أيها الناس.. وما يبلغنا أحد منكم حاجته، يسعها ما عندنا، إلا سددنا من حاجته ما قدرنا عليه، ولا أحد يتسع له ما عندنا إلا وددت أنه بدىء بي وبلحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم. وأيم الله لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة[2] لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه، ولكنه من الله، عز وجل، كتاب ناطق، وسنة عادلة، دل فيهما على طاعته ونهى فيهما عن معصيته![3]..

فمن يرفع إلى الدولة حاجته، تلبيها ما وسعتها الامكانات، على هدي من الفلسفة التي تستهدف التسوية في العيش بين الناس وبين الخليفة وأهل بيته - «لحمته» -.. وإن كتاب الله وسنة نبيه يقفان حائلين دون استئثاره وأهله بالعيش الطيب واللين من دون الناس!..

وفرضت الدولة للناس العطاء، وأدخلت على ديوانه الاصلاحات، فعاد ليشمل الثوار الذين حرمهم الخلفاء الأمويون السابقون، وليضم الموالي الذين استبعدوا من قوائمه، وتساوى فيه «العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء[4]!..».

(١) بلدة صغيرة من أعمال حلب، في محاذاة قنسرين من ناحية البادية.

(٢) الغضارة: طيب العيش ولينه.

(٣) (الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٨٧.

(٤) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٥، ٢٧٧.

وكان عمر بن الخطاب قد جعل لذرية المقاتلين الذين قامت الدولة بسيوفهم عطاء محدداً في الديوان، يتوارثونه. فلما جاء حكم معاوية ضيق نطاق هذا العطاء فأصبح سلاحاً بيد الدولة للترغيب والترهيب، فلما حكم عبد الملك بن مروان أوقف هذا العطاء كلية، ولكن عمر بن عبد العزيز أعاد عطاء أبناء المقاتلين وذريتهم، ثانية، إليهم، وحكمت العدالة والمساواة توزيعه فيهم، كما كان الحال زمن عمر بن الخطاب[1].. ولقد أصبح العطاء، بهذا القرار، عاماً وشاملاً، فالذين بلغوا من العمر خمس عشرة سنة أصبح لهم عطاء المقاتلين، ومن سنهم دون ذلك أصبح لهم عطاء الذرية[2]!

وفرضت الدولة فروضاً للمرضى بأمراض مزمنة تعجزهم عن العمل ـ (الزمنى) ـ.. ولقد أراد بعض الولاة ـ ومنهم صاحب ديوان دمشق ـ أن ينفق عليهم صدقة، دون أن يجدد لهم في بيت المال حقوقاً واجبة ومقررة ومفروضة، فشكوه إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه أن يفرض لهم حقوقاً واجبة، لا مجرد صدقات وإحسانات، وقال له: «إذا أتاك كتابي هذا فلا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم، فإني لا أحب ذلك![3]»..

---

(١) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١٧٥.

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨١.

وامتدت الدولة، وبيت مالها، بعطائها إلى الكثير من مجالات «الخدمات» التي تيسر على الناس أمور الحياة. . حتى لقد كتب عمر ابن عبد العزيز إلى ولاته وعماله في الأقاليم أن يقيموا «الخانات» - (النزل - الفنادق) - لنزول المسافرين، وأصبح «حقاً» للمسافر أن يقيم على نفقة الدولة بهذه «الخانات» يوماً وليلة، يقدم له فيها الطعام، بل ويتعهدون له، أيضاً، ما بصحبته من دواب!.. فإذا كان المسافر مريضاً كان حقه الاقامة فيها يومين وليلتين!.. فإن كان هذا الغريب منقطعاً، أي لا أهل له - (من أبناء السبيل) - كان له، فوق إقامته «بالخانات» وإعاشته منها: المعونة التي تعينه على الوصول إلى البلد الذي يريد[1]!..

ولقد نظر عمر بن عبد العزيز إلى من تثقل كاهلهم «أمانات» لا يستطيعون الوفاء بها، وإلى من رغب الزواج ولا قدرة له على دفع «الصداق»، فجعل لهؤلاء حقاً مقرراً في بيت المال، وكتب إلى عماله على الأقاليم: «..ومن كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله!..»[2].

ولم تنس الدولة ابناءها الأسرى المحتجزين في القسطنطينية عاصمة الروم البيزنطيين، ففرضت لهم في العطاء، وغيره، ما

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٧.
(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٦.

يزيد على أنصبتهم لو كانوا أحراراً، وأعطت أنصبتهم هذه لأهلهم وذويهم، ثم بعثت إليهم في الأسر نفقات، تكفي الضرورة، ولا تزيد عليها حتى لا يطمع فيها ويغتصبها «طاغية الروم»!.. ولقد كتب إليهم، في الأسر، عمر بن عبد العزيز كتاباً قال لهم فيه: «أما بعد فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، ولستم أسارى. معاذ الله! أنتم الحبساء في سبيل الله.. واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه!.. وقد بعثت إليكم خمسة دنانير، خمسة دنانير - (أي لكل أسير) -، ولولا أني خشيت ان زدتكم أن يحبسه عنكم طاغية الروم لزدتكم!»..

ثم اخبرهم أنه قد بعث من يفاوض الروم على فدائهم جميعاً، ذكوراً وأناثاً، عرباً وموالي، أحراراً ورقيقاً، وانه سيدفع كل ما يطلبه الروم من فداء.. «فأبشروا، ثم أبشروا[1]؟!».

هكذا بدأ العدل يثمر، وبدأت الدولة تعطي.. تعطي خلفاء الله في الأرض - الأمة - من مال الله - مال الأمة -.. فحق الله، كما قرر الاسلام، هو حق المجتمع - (الأمة) - ومن ثم فإن ماله هو مالها، متكافلة متضامنة، وبعبارة عمر بن عبد العزيز، التي خاطب بها الناس: «أيها الناس.. إنما هو مالكم، نرده إليكم![2]»..

---

(١) الأغاني - ج ٩ ص ٣٣٨٥، ٣٣٨٦.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٥.

وفي هذا العطاء كانت عين الدولة، قبل كل شيء، على الأحق، والأولى.. على الفقراء.. وهذا هو أحد الفروق الجوهرية بين «عطاء» عمر ودولته الثورية، وبين «عطاء» من سبقه من الخلفاء.. فلقد كانوا يمنحون الهبات للأنصار والأعوان وأهل العصبية والمرائين، ويغدقون العطاء على شعراء المديح والمفاخرة والمبالغة والهجاء للخصوم.. أما عمر فلقد جعل عطاء دولته، المنظم، لمن هم الأولى والأحق والأكثر احتياجاً..

ولقد وفد عليه الشعراء يطلبون عطاياه كما كان صنيعهم مع من سبقوه، فكان يقدم «العامة» في الدخول عليه على مشاهير الشعراء، ولما شكا إليه «كثير عزة» (١٠٥ هـ ٧٢٣ م) طول إقامتهم ببابه دون عطاء، وقال:

- يا أمير المؤمنين، طال الثواء، وقلت الفائدة، وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب!..

(أجابه):

- يا كثير، أما سمعت إلى قول الله عزّ وجل في كتابه: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾؟[1].. أفمن هؤلاء أنت، يا كثير؟!..

---

(١) التوبة: ٦٠.

ولقد انضم الأحوص، عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن عاصم الأنصاري (١٠٥ هـ ٧٢٣ م) ونصيب بن رباح (١٠٨ هـ ٧٢٦ م) إلى كثير وطلبوا أن ينشدوه شعرهم، فطلب إليهم ألا يقولوا إلا حقاً، فإن الله سائلهم عما يقولون!.. ولما طلبوا منه العطاء، وألحوا، أخبرهم أن لا مجال في بيت مال المسلمين لعطاء الشعراء.. «ما عندي ما أعطيكم، فانتظروا حتى يخرج عطائي فأواسيكم منه!».. ولذلك وجدنا الشاعر (الراجز) دكين بن رجاء (١٠٥ هـ ٧٢٣ م) يبلغ القمة في الصدق والاجادة عندما يرد على جرير ابن عطية اليربوعي (٢٨ ـ ١١٠ هـ ٦٤٠ ـ ٧٢٨ م) عند رجوعه من عند عمر بن عبد العزيز.. فلقد سأل جرير دكين:

ـ من أين؟.. ـ (فقال):

ـ من عند من يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء![1]

فعلم جرير أنه قادم من عند عمر بن عبد العزيز!.

هكذا صنع العدل.. وهكذا حولت الثورة جهاز الدولة إلى مصدر بر وعطاء بعد أن كان أداة قمع واستلاب! لقد أخذت الدولة تعطي الفقراء بكلتا يديها.. ولقد صدق الشاعر عويف القوافي، عوف بن معاوية بن عقبة (١٠٠ هـ ٧١٨ م) عندما قال لعمر ابن عبد العزيز:

---

(١) (الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٧٧، ٣٣٧٨، ٣٣٨٠، ٣٣٨١.

أجئني أبا حفص لقيت محمداً
على حوضه مستبشراً وراكا
فأنت امرؤ كلتا يديه مفيدة
شمالك خير من يمين سواكا[1].

(1) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٦ .

الحقيقة.. الأسطورة

[منسوب - في المأثورات - الى عمر بن الخطاب قوله - في التنويه بعمر بن عبد العزيز - «ليت شعري ! من [الأشج] من ولدي ، الذي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً ؟ ! . .] .

في ظل حكم بني أمية، قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، وأيضاً بعدها، كانت أرض الدولة العربية الاسلامية قد ملئت ظلماً وجوراً.. وعندما خيل لدعاة العدل وعشاق المساواة والذين يحلمون بعودة الروح للنهج الاسلامي في الحكم وسياسة الناس أن الطريق أمامهم قد ازداد طولاً، أو غدا مسدوداً تحولت آمالهم في العدل وأحلامهم في المساواة إلى أمنية «طوبائية ـ مثالية» في أن تتولى السماء، بعد أن عجز الثوار، الصنع والبحث لذلك «المهدي المنتظر» «المخلص» للأمة من آلامها، والذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً؟! والذي ستشهد الأرض في عدله رخاء لا عوز فيه، وأمناً يجعل

الذئب يحرس الغنم، والانسان يضع ذراعه في فم الأسد فلا يصيبه المكروه؟!..

ولقد «حلمت» تيارات فكرية إسلامية عدة بهذا «المهدي المنتظر»، بل وحلمت به قبائل مسها التميز القبلي والعصبية القبلية بالاضطهاد والاجحاف..

فللشيعة الاثني عشرية «مهديها» المنتظر[1].. وللشيعة «الكيسانية»، هي الأخرى «مهديها» المنتظر[2].. وعندما استبعد «النسابون» كلا من «القحطانيين» و«المضريين» و«الكلبيين» من إطار قريش، قريش العصبية والسلطة، وعانت هذه البطون من الاستبعاد والاهمال، حلمت «بالمخلص» و«المهدي»، فكان: «القحطاني المنتظر» و«التميمي المنتظر» و«الكلبي المنتظر»[3]!.. وكانت هذه التيارات، الفكرية والقبلية، تعبِّر بحلمها «الطوباوي» هذا عن عشقها للعدل، ذلك العشق الذي جسدته في «أسطورة» المهدي بعد أن عجزت عن وضعه، بالثورة، موضع الممارسة والتحقيق.

ولكن ثورة عمر بن عبد العزيز، التي أشعلها من قمة

---

(١) الطوسي، أبو جعفر. (تلخيص الشافي) ج ١ ق ١ ص ٩٠، ٩١. طبعة النجف سنة ١٣٨٣ ـ سنة ١٣٨٤ هـ.

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٦١.

(٣) (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) ص ١٢١، ١٢٢.

السلطة عندما ولي الخلافة، قد حولت «الأحلام» في العدل إلى واقع رآه الناس أو اقتربوا منه إلى حد كبير.. ومن هنا تحولت هذه الثورة، وهي «حقيقة»، تحولت في ضمير الأمة وتراثها وتاريخها إلى «أسطورة»!.. وتحولت فترة حكم هذا الخليفة الصالح العادل الثائر، وهي لم تتعد سنتين وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً، تحولت إلى «صورة مثالية»، بعد أن ارتدت عنها الدولة واغتالها الخلفاء الذين أعقبوه!.. وتحول صاحب هذه الثورة وإمام هذا العدل إلى «مهدي»، جاء فخلص الناس من آلامهم وحقق لهم آمالهم، وملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً!..

فعندما كان عمر بن عبد العزيز طفلاً صغيراً حدث له جرح في جبهته، من حافر فرس، واندمل الجرح وبقي أثر «الشج»، فعرف، «بالأشج»، «أشج بني مروان»!..

فلما كبر، وحكم، وعدل، تحول «الأشج» إلى أسطورة في ضمير الأمة وذكرياتها، ورؤيا مثالية من رؤى التاريخ والتراث.. وحفل هذا التراث وذلك التاريخ بالعديد من المأثورات الأسطورية التي رسمت «لأشج بني مروان» هذه القسمات المتميزة عمن سبقه أو لحقه من الخلفاء..

● فمأثورة تقول: ان عمر بن الخطاب ـ وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه ـ قد تساءل، قبل ميلاده أكثر من ثلث قرن،

فقال: «ليت شعري! من ذو «الشين» ـ (الشج) ـ من ولدي، الذي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً؟!»[1]

● ومأثورة ثانية تقول: ان عبد الملك بن مروان كان يظهر محبة ملحوظة وودأ زائداً للطفل عمر بن عبد العزيز ولما عاتبه البعض على تقديمه لعمر عن بعض أبنائه قال لمن عاتبه:

ـ أو لم تعلم لم فعلت ذلك؟!

ـ لا!..

ـ إن هذا سيلي الخلافة يوماً، وهو أشج بني مروان الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ان تملأ جوراً.. فمالي لا أحبه وأدنيه[2]؟!

● ومأثورة ثالثة تقول: ان رجلاً سأل سعيد بن المسيب (١٣ ـ ٩٤ هـ ـ ٦٣٤ ـ ٧١٣ م) ـ وهو من أئمة الفقهاء والعلماء في عصره ـ وحاوزه:

ـ يا أبا محمد، من المهدي؟

ـ أدخلت دار مروان؟!

ـ لا!

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٤٣.

(٢) (الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٧٤.

ـ فادخل دار مروان تر المهدي!.. (ودخل الرجل دار مروان، ثم عاد ليسأل):

ـ يا أبا محمد، دخلت دار مروان فلم أر أحداً أقول: هذا المهدي!..

ـ هل رأيت الأشج، عمر بن عبد العزيز، القاعد على السرير؟!..

ـ نعم!

ـ فهو المهدي!!..[1]

● ومأثورة رابعة يرويها عالم المعتزلة: أبو يحيى مالك بن دينار (١٣١ هـ ـ ٧٤٨ م) تقول:

ان الرعاة الذين يرعون الغنم، بمعزل عن العمران، في رؤوس الجبال، قد ظهرت لهم علامات وخوارق أنبأت بأن الخلافة قد تولاها «عبد صالح»، عندما بويع بها عمر بن عبد العزيز!.. فتساءل الرعاة:

ـ من هذا العبد الصالح الذي قام على الناس؟!..

فسألهم الناس في تعجب:

ـ وما علمكم بذلك؟!... (فقالوا):

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٤٢٥.

- انه إذا قام على الناس خليفة عدل كفت الذئاب أذاها عن الغنم؟!..

● وتتحدث مأثورة خاصة عن أن الذئاب وكل الوحوش قد استمرت في كف أذاها عن الغنم حتى مات عمر بن عبد العزيز، فعادت إلى الأذى والعدوان من جديدا.. يروي «موسى بن أعين» فيقول: «كنا نرعى الشاء» بكرمان في خلافة عمر بن عبد العزيز، فكانت الشاء والذئاب والوحوش ترعى في موضع واحد، فبينا نحن ذات ليلة، إذ عرض الذئب لشاة، فقلنا: ما أرى الرجل الصالح إلا قد مات؟! فنظروا فوجدوه قد مات في تلك الليلة[1].

نعم.. إنها، بمنطق العقل وبراهينه، مأثورات وأساطير.. ولكنها، ككل المأثورات والأساطير، إبداع شعب وثمار لعبقرية أمة، عبّرت بها عن مكنون معاناتها من الظلم والجور، وعن اللحظة التي امتلكت فيها ميزان العدل وتذوقت ثمراته، وكذلك عن الردة التي أصابتها بعد وفاة عمر بن عبد العزيز!.. عبرت عن كل ذلك بالمأثورات والأساطير، كما عبرت عنه بالخبر الموثق الذي أودعته صفحات التاريخ..

فالرجل الذي مثل الشهاب المنير في ليل الدولة الأموية قد عاجله أمراء بيته فوضعوا له السم في الشراب قبل أن يعيد

---

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٨٥.

الخلافة إلى «الشورى والاختيار»، ويضعها، كما كانت، بيد «أهل الحل والعقد» وقادة الرأي يولونها للأصلح والأقدر والأعدل ممن تتوافر فيهم الشروط[1].. فبعد مرض دام عشرين يوماً صعدت روحه المطمئنة إلى خالقها، وهو في قرية «دير سمعان» - من أعمال حمص بأرض المعرة - في يوم السبت ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ (١٠ فبراير سنة ٧٢٠ م)، قبل أن يبلغ الأربعين من عمره، وبعد حكم لم يزد عن سنتين وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً[2].. ودفن بقبر كان قد اشترى موضعه بدينارين من الراهب الذي يرعى الدير.. دير سمعان[3].

وبمثل السرعة والعزم اللذين قامت بهما ثورة عمر بن عبد العزيز فور وفاة الخليفة الذي سبقه سليمان بن عبد الملك، حدثت الردة عن ثورة عمر وعدله فور تولي يزيد بن عبد الملك للحكم عندما مات عمر بن عبد العزيز؟![4].. فكانت هذه الردة «الحقيقة» التي عبرت عنها «المأثورات والأساطير» عندما قالت: ان الذئاب والوحوش قد عادت لافتراس القطيع، بعد أن كان ذلك الأذى والافتراس قد توقف وامتنع في ظل حكم عمر بن عبد العزيز؟!..

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٦.

(٢) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٦٤، ٥٦٥.

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٩٩.

(٤) ابن خلدون (العبر) ج ٣ ص ٧٦.

تلك هي «الحقيقة» و«الأسطورة»، بل «الحقيقة - الأسطورية» التي مثلها هذا الخليفة الصالح العادل الثائر في التراث السياسي والاجتماعي للعرب والمسلمين..

ولقد جزع الناس لموته.. فلقد كانوا - كما قال كثير عنه - يودون أن يعطوه نصف أعمارهم حتى يخلد حكمه فيدوم عدله!:

فلو يستطيع المسلمون تقسموا
لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت به ما حج لله راكب
مغذ مطيف بالمقام وزمزم
فاربح بها من صفقة لمبايع
وأعظم بها، أعظم بها، ثم أعظم!
فما بين شرق الأرض والغرب كلها
مناد ينادي من فصيح وأعجم
يقول: أمير المؤمنين ظلمتني
بأخذ لدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرىء ظالم به
ولا السفك منه، ظالما، ملء محجم
وليت فلم تشتم عليا ولم تخف
بريا ولم تتبع مقالة مجرم

وقلت فصدقت الذي قلت بالذي
فعلت فأضحى راضياً كل مسلم[1]

وعندما سمع كثير موت عمر، قال:

أقول لما نعى الناعون لي عمراً
لا يبعدن قوام العدل والدين
قد غادر القوم اللحد الذي لحدوا
«بدير سمعان» قسطاس الموازين[2]

هكذا كان عمر بن عبد العزيز.. وهكذا كانت ثورته الاجتماعية.. وهكذا كان العدل الذي أقامه بين الناس، عندما رد المظالم، وأعاد الثروة العامة إلى الأمة «نهراً أعظم، والناس شربهم فيه سواء!».

* * *

ولكن... من الناس من يقول: كل ذلك حق وصدق وخير.. ولكنه مجرد تاريخ وتراث.. فمن لنا بمثل عمر بن عبد العزيز؟!.. إن العصر قد تغير، والناس مختلفون. فلا أمل ولا رجاء ولا فائدة من استلهام هذه الصفحات التاريخية المشرقة، فضلاً عن الأمل في عودة «عدلها وانصافها» إلى الواقع الذي نعيش فيه!..

---

(١) (الأغاني) ج ٩ ص ٧٨، ٣٣.

(٢) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٧٢.

من الناس من يقول ذلك.. ولكن أصحاب هذا القول يتجاهلون أن هناك قوانين تحكم حركة التطور والصراع في أي مجتمع من المجتمعات، وفي كل المجتمعات، وعلى اختلاف العصور وتعدد الحضارات.. فعمر بن عبد العزيز، وغيره من أئمة العدل، قد حققوا للناس عدلاً بمقدار ما استجابوا لمصالح مجموع الأمة الطامحة إلى رد المظالم واستعادة الحقوق وإقامة الحق والعدل بين الناس.. والذين وقفوا، في الصراع الاجتماعي، على النقيض من عمر بن عبد العزيز، قد أصابوا أممهم بما أصابها من الجور والظلم بقدر ما استجابوا لمطامع القلة التي شاءت أن تستأثر بحقوق سواد الناس وجهودهم.. فالذين يبصرون القانون العام، والحقيقة الأساسية، ويدركونها بوعي يقظ، ثم يسلكون السبيل الأقوم لوضعها في الممارسة والفعل والتطبيق، لن يكون عزيزاً عليهم أن يحققوا لمجتمعاتهم من العدل ما حققه لمجتمعه عمر بن عبد العزيز، بل وأكثر مما حققه عمر بن عبد العزيز!

وحتى نؤكد مقولتنا هذه وندعمها، نذكر للذين يعارضون أو يتشككون: أن عمر بن عبد العزيز كان يضع نموذج عدل عمر بن الخطاب مثالاً يستلهمه، ولم يكن يريد إعادة مجتمع عمر ابن الخطاب وتجربته ثانية، لأن التطور قد تجاوز الكثير من واقعها ووقائعها.. كان يريد عدل عمر بن الخطاب لمجتمع عمر بن عبد العزيز... وكان هناك من يتحدث عن استحالة ذلك، لتغير الزمان وتغير الرجال؟!.. وللرد على

هؤلاء، طلب عمر بن عبد العزيز إلى أحد علماء عصره أن يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب، للاسترشاد والاستلهام، فكتب إليه بها، وختم كتابه بهذه الكلمات:

«إن عمر بن الخطاب كان في غير زمانك، ومع غير رجالك، وإنك إن عملت في زمانك ورجالك بمثل ما عمل به عمر ابن الخطاب في زمانه ورجاله كنت مثل عمر بن الخطاب وأفضل؟!»[1].

فللعدل قانون.. والمهم هو اكتشافه والوعي به.. والأهم هو السعي لتطبيقه وإقامة صرحه وسلطانه.. وعند ذلك، وبالرغم من اختلاف الزمان والرجال، يتحقق العدل الذي استهدفه الأولون ويحلم به المعاصرون..

فهل من راغب في هذه المسيرة؟.. ومن ذا الذي يحمل سلاحه ويسعى على هذا الطريق؟.. حتى يكون مثل - بل وربما أفضل - من عمر بن عبد العزيز؟؟!!..

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٩٢.

وأخيراً . . .

هكذا تكلم عمر بن عبد العزيز

والآن... وبعد أن عرضنا لسيرة هذا الرجل الصالح، والإمام العادل، والشهاب الذي أضاء في ليل الدولة الأموية فمنح أمة محمد، ﷺ، صفحة من الفكر والتطبيق يرضى عنها الله ويسعد بها الناس...

الآن... قد يكون مفيداً، وجديداً أن نضع بين يدي الباحث والقارىء تلك النصوص التي بقيت متناثرة، والكلمات التي ظلت متفرقة من آثار ذلك الرجل الصالح والضمير المرهف: عمر بن عبد العزيز...

إن حكام تلك العصور، وخلفاء تلك الأزمنة لم يؤلفوا الكتب ولم يحرروا الرسائل.. وباستثناء الإمام علي بن أبي طالب ـ لتعظيم الشيعة له ـ فلم يحدث أن جمع أحد الكتب والرسائل والخطب والحكم التي أثمرتها حياة خليفة من هؤلاء الخلفاء.. ولقد ظلت آثار هؤلاء الرجال مبعثرة في عشرات المصادر والمراجع من كتب التراث...

وفيما يتعلق بعمر بن عبد العزيز، فنحن لا نزعم أن هذا الفصل من فصول هذا الكتاب قد استقصى كل ما هو منسوب إليه في كتب التراث، ولكننا قد جمعنا فيه ما تناثر في المصادر التي رجعنا إليها ونحن نكتب هذا الكتاب، وهي أهم المصادر التي عرضت لسيرة هذا الخليفة العادل ولتاريخ المسلمين وفكرهم وحضارتهم في العصر الذي عاش فيه. . .

لقد مات عمر بن عبد العزيز وهو في الأربعين من عمره ولم تتعد سنوات حكمه العامين إلا قليلاً. . ولكنه في هذا الزمن القليل:

● اقترب كثيراً، وقرب إليه الكثير من أئمة عصره، فلاسفة وقراء وفقهاء ومؤرخين. . .

● وحام حوله أبرز شعراء العصر وأعظمهم، فتركوا ـ لعدله وصلاحه ـ المديح الكاذب، والمجون، والمبالغات، وقالوا فيه وفي عدله شعراً ينتصر للحق والعدل، وجاء شعرهم هذا شهادة بقاء لشعر الشعراء المؤمنين الذين استثناهم القرآن من الشعراء «الهائمين» في الضلالات «والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا. .»[1]. .

---

(١) الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

● وهو قد ناظر الخصوم وحاور الأقران والأنداد..

● كما فاض عقله الراجح بالحكمة، تقطرت من فيه إلى حيث حفظها الناس، وتناقلتها كتب التراث حكماً ومأثورات تروى، حتى لقد ظل العقل العربي المسلم يقف أمامها خاشعاً متأملاً، ومستلهماً منذ عصره حتى هذا العصر الذي نعيش فيه!..

● وهو قد خاطب الناس وخطبهم ووعظهم، فكان يبكيهم، بل ويبكي قبلهم!..

● كما فرضت عليه شؤون الحكم وسياسة الدولة ورعاية الرعية أن يكتب العديد من الرسائل إلى العمال والولاة والأعوان... ولم تكن مكاتباته ومراسلاته «كتابة ديوانية» أنشأها كتاب محترفون، بل كانت أثراً من آثاره هو أولاً وقبل كل شيء.. بل لقد أثر عنه أنه كان كثير الكتابة بيده هو، لا بفكره فقط، لهذه الكتب والمراسلات[1]..

فإذا كنا قد جعلنا من هذا الفصل صفحة سطرناها بنصوص عمر بن عبد العزيز ومأثوراته.. فإنها، ولا شك، المرة الأولى التي يصبح فيها لهذا الرجل الصالح والإمام العادل

---

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ١٦٥.

فصل مجموع في كتاب.. كما أنها ستكون بالقطع، إطاراً لعصره، وتجسيداً لمجتمعه، وشاهداً على العلاقات التي صنعها، والتي أحاطت بهذا الخليفة العظيم..

فمنذ اليوم الذي أملى فيه الخليفة الذي سبق عمر بن عبد العزيز، سليمان بن عبد الملك، ذلك العهد الذي تولى عمر فيه خلافة المسلمين.. والذي كان نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب من عبد الله سليمان، أمير المؤمنين، لعمر بن عبد العزيز بن مروان...

اني قد وليتك الخلافة بعدي. ومن بعده يزيد بن عبد الملك..

فاسمعوا له وأطيعوا. واتقوا الله، ولا تختلفوا فيطمع فيكم»[1].

منذ ذلك اليوم.. وحتى وفاته أعطى عمر، مع العدل والصلاح، تراثاً في ميدان الكلمة، جاء وثيقة فكرية لهذا العدل والصلاح...

---

(١) «تاريخ الطبري» (ج ٢ ص ٥٥١).

ونحن هنا ندع الميدان لعمر بن عبد العزيز، ونفرد هذه الصفحات لمأثوراته، ولبعض المأثورات التي جاءت جواباً لكتبه وأسئلته، أو التي جسدت مواقفه وعلاقاته مع الذين اقتربوا منه أو قربهم إليه أو استعان بهم على انجاز ما أنجز من عدل وصلاح.. فهنا سيجد القارىء:

١ ـ رسائل ومواعظ قدمها نفر من أئمة عصره إليه.

٢ ـ وبعضاً من أشعار الشعراء الذين قامت بينهم وبينه علاقة تميزت عن تلك التي قامت بينهم وبين الخلفاء السابقين.. وقالوا فيه شعراً تميز هو الآخر عن مدائحهم لمن سبقه من الخلفاء.

٣ ـ ومناظرات لهذا الخليفة الصالح مع خصوم الدولة، عكست نهجه الجديد في الفكر والتطبيق..

٤ ـ وخطباً ومواعظ كانت ولا تزال آية من آيات الفكر الديني الراقي والمخلص والمتبتل والعميق..

٥ ـ وصياغات قانونية تشريعية، هي نموذج لاجتهاد عمر بن عبد العزيز في فقه الاسلام..

٦ ـ وكتباً ومراسلات بعث بها إلى الولاة والعمال في الأمصار والأقاليم.

٧ ـ ومحاورات بينه وبين بعض أهله وخاصة رجاله ونفر من زواره..

٨ ـ وأخيراً.. كلماته في الحكمة.. تلك التي كثفت تجربته فجاءت قطعة من الفلسفة المتدينة، والتدين الممتزج بالحكمة..

إنها صفحات يتحدث فيها، مباشرة، عمر بن عبد العزيز.. ويتجسد في سطورها العصر الذي عاش فيه، والتجربة الصالحة التي صنعها في تراثنا وحضارتنا هذا الشهاب الذي لمع في ليل الدولة والأسرة الأموية، والذي ما زال حتى اليوم لامعاً في ليل هذه الأمة، يستنهض همم عشاق العدل بنوره الذي يكاد، لو تأملنا، أن يطمس الكثير، ويكشف عن الكثير ويشير علينا بالكثير؟!

ـ ١ ـ

عندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن البصري ـ وكان يعده سيد التابعين ـ يطلب منه أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل.. فكتب إليه الحسن:

اعلم، يا أمير المؤمنين، ان الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف.

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن

مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقر.

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم.

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده.

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وعباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم.

فلا تكن، يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله، عزّ وجل، كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم، يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وان الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟!.

واذكر، يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم، يا أمير المؤمنين، أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك «يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه»[1].

واذكر يا أمير المؤمنين: «إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور»[2]، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

فالآن، يا أمير المؤمنين، وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم، يا أمير المؤمنين، في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك،

---

(١) عبس: ٣٤ - ٣٦.

(٢) العاديات: ٩ - ١٠.

ويأكلون الطيبات في دنياهم باذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

اني، يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي، فلم آلك شفقة ولا نصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة.

والسلام عليك، يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته[1]..

- ٢ -

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز:

من الحسن بن أبي الحسن إلى عمر بن عبد العزيز، أمير المؤمنين..

أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل!.

فجاءه رد عمر بن عبد العزيز:

بسم الله الرحمن الرحيم.

---

(١) «العقد الفريد» (ج ١ ص ٣٤ - ٣٦).

أما بعد. فإنك لست بأول من كتب عليه الموت، وقد مات، والسلام!

- ٣ -

وقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز، فقال:

إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم، وكم من قوم قد غرهم مثل الذي اصبحنا فيه حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا من الدنيا مرملين، لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا جنة[1]، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم.

فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت، فقدمه بين يديك حتى تخرج إليه، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت، فابتغ به البدل حيث يجوز البدل.

ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك ترجو جوازها عنك.

يا أمير المؤمنين، افتح الأبواب، وسهِّل الحجاب، وانصر المظلوم[2]!

---

(١) بضم الجيم وفتح النون مشددة - أي حصنا وعدة ووقاية.

(٢) «عيون الاخبار» ج ٢ ص ٣٤٣.

- ٤ -

وقال محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبد العزيز:

إن فيك عقلاً، وإن فيك جهلاً، فداو بعض ما فيك ببعض! وآخ من الاخوان من كان ذا معلاة[١] في الدين ونية في الحق، ولا تؤاخ منهم من تكون منزلتك عنده على قدر حاجته إليك، فإذا قضى حاجته منك ذهب ما بينك وبينه. وإذا غرست غرساً من المعروف فلا تبغين أن تحسن تربيته[٢].

- ٥ -

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ارسل إلى سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، فدخلا عليه، فقال لهما:

أشيرا علي.

- فقال له سالم: اجعل الناس أباً وأخاً وابناً، فبر اباك، واحفظ أخاك، وارحم ابنك.

- وقال محمد بن كعب: أحبب للناس ما تحب لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك، واعلم انك لست أول خليفة يموت؟![٣].

---

(١) علو وشرف.

(٢) «عيون الاخبار» ج ٣ ص ٤.

(٣) «العقد الفريد» ج ١ ص ٤٠.

- ٦ -

ودخل عليه، عندما ولي الخلافة، خالد بن عبد الله القسري، فقال مهنئاً:

- يا أمير المؤمنين، من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها، ومن تكون شرفته فأنت قد شرفتها، وأنت كما قال الشاعر:

وإذا الدر زان حسن وجوه
كان للدر حسن وجهك زينا

- فقال عمر بن عبد العزيز: اعطى صاحبكم مقولاً، ولم يعط معقولاً(١)!..

واستقبل يوماً وفداً من أهل العراق، فأبصر في الوفد شاباً يتأهب للكلام، فقال عمر:

- اكبروا؟!..

- فقال الشاب: يا أمير المؤمنين، إنه ليس بالسن، ولو كان الأمر كله بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك!

- صدقت، رحمك الله، تكلم!..

- يا أمير المؤمنين، أنا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة

(١) المصدر السابق. ج ٢ ص ١٣٤.

فقد دخلت علينا منازلنا، وقدمت علينا بلادنا، وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك!

ـ من أنتم؟!..

ـ وفد الشكر!

فنظر محمد بن كعب القرظي ـ وكان حاضراً ـ إلى وجه عمر يهلل، فقال: يا أمير المؤمنين، لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك! فإن ناساً خدعهم الثناء، وغرهم شكر الناس فهلكوا، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم!..

فألقى عمر رأسه على صدره؟![1]..

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري:

اجمع لي أمر الدنيا، وصف لي أمر الآخرة.

فأجابه الحسن البصري:

إنما الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام. من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل.

فإذا ذللت فارجع، وإذا ندمت فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك.

---

(١) المصدر السابق: ج ٢ ص ١٤٠، ١٤١.

واعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه!

وان فيما أمرك الله به شغلاً عما نهاك عنه. والسلام[1].

- ٩ -

ودخل كثير عزة على عمر بن عبد العزيز، واستأذنه في الإنشاد:

- يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاد؟

- نعم، ولا تقل إلا حقاً..

فأنشده:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف
بريا ولم تقبل إشارة مجرم

وصدقت بالفعل المقال مع الذي
أتيت فامسى راضياً كل مسلم

الا إنما يكفي الفتى بعد زيغه
من الأود البادي ثقاف المقوم

وقد لبست لبس الهلوك ثيابها
تراءى لك الدنيا بكف ومعصم

وتومض أحياناً بعين مريضة
وتبسم عن مثل الجمان المنظم

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٢.

فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما
سقتك مدوفاً[1] من سمام وعلقم

وقد كنت في أجبالها في ممنع
ومن بحرها في مزبد الموج مفعم

وما زلت تواقاً إلى كل غاية
بلغت بها أعلى البناء المقوم

فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن
لطالب دنيا بعده من تكلم

تركت الذي يفنى وإن كان مونقاً
وآثرت ما يبقى برأي مصمم

وأضررت بالفاني وشمرت للذي
أمامك في يوم من الهول مظلم

ومالك إذ كنت الخليفة مانع
سوى الله من مال رغيب ولا دم

سما لك هم في الفؤاد مؤرق
بلغت به أعلى المعالي بسلم

فما بين شرق الأرض والغرب كلها
مناد ينادي من فصيح وأعجم

يقول: أمير المؤمنين ظلمني
بأخذ لدينار ولا أخذ درهم

(١) المدوف: المخلوط.

ولا بسط كف لامرىء غير مجرم
ولا السفك منه ظالماً ملء محجم

ولو يستطيع المسلمون لقسموا
لك الشطر من أعمارهم غير ندم

فعشت به ما حج لله راكب
مغذ مطيف بالمقام وزمزم

فأربح بها من صفقة لمبايع
وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم[1]

- ١٠ -

ودخل الأحوص على عمر بن عبد العزيز، واستأذنه في الإنشاد، فقال له:

- قل، ولا تقل إلا حقاً..

فأنشد:

وما الشعر إلا حكمة من مؤلف
بمنطق حق أو بمنطق باطل

فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا
ولا ترجعنا كالنساء الأرامل

رأيناك لم تعدل عن الحق يمنة
ولا يسرة فعل الظلوم المخاتل

---

(١) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٨٨، ٨٩. و«الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٧٨، ٣٣٧٩.

ولـكـن أخـذت الحـق جـهـدك كـلـه
وتـقـفـو مـثـال الـصـالحـين الأوائـل
فقلنـا ولم نكـذب بمـا قـد بـدا لنـا
ومـن ذا يـرد الحق مـن قـول قـائـل
ومن ذا يـرد السهم بعـد مضـائـه
عـلى فـوقـه إذ عـار[1] من نـزع نـابـل
ولـولا الـذي عـودتـنـا خـلائـف
غـطاريف كـانـوا كـالليـوث البـواسـل
لمـا وخـدت شهـراً بـرحـلي شملة[2]
تـقـد متـون البيـد بـين الـرواحـل
ولكن رجـونـا منـك مثل الـذي بـه
حبينـا زمـانـاً من ذويـك الأوائـل
فـإن لم يكن للشعـر عنـدك مـوضـع
وإن كـان مثل الـدر من نـظم قـائـل
وكـان مـصيبـاً صـادقـاً لا يـعيبـه
سـوى انـه يـبـنى بـنـاء المـنـازل
فـإن لـنـا قـربى ومحض مـودة
وميـراث آبـاء مـشـوا بـالمـنـاصـل
فـذادوا عـدو السلم عن عقـر دارهـم
وأرسـوا عمـود الـدين بعـد التمـايـل

(١) السهم العائر هو الذي لا يعرف مصدره.
(٢) شملة ـ بكسر الشين والميم وفتح اللام مشددة ـ أي سريعة.

وقبلك ما أعطى الهنيدة[1] جلة
على الشعر كعباً من سديس وبازل
رسول الإله المستضاء بنوره
عليه سلام بالضحى والأصائل
فكل الذي عددت يكفيك بعضه
ونيلك خير من بحور السوائل[2].

وقال فيه الشاعر عتبة بن شماس:

ان أولى بالحق في كل حق
ثم أحرى بأن يكون حقيقا
من أبوه عبد العزيز بن مروان
ومن كان جده الفاروقا
رددت أموالنا علينا وكانت
في ذرا شاهق تفوق الأنوقا[3]

- ١٢ -

ودخل جرير على عمر بن عبد العزيز، واستأذنه في الإنشاد، فقال له:

---

(١) الهنيدة هي المائة من الابل. والسديس، من الابل، هي ما كانت في الثامنة من عمرها، والبازل منها ما بلغت التاسعة. وكعب هو الشاعر كعب بن زهير.

(٢) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٨٩ - ٩١. و«الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٧٩، ٣٣٨٠.

(٣) «العقد الفريد» ج ٥ ص ٢٩١. «والأنوق: هو العقاب».

- اتق الله يا جرير، ولا تقل إلا حقاً.

فأنشد يقول:

كم باليمامة من شعثاء أرملة
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

ممن يعدك تكفي فقد والده
كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

يدعوك دعوة ملهوف كأن به
خبلاً من الجن أو مساً من البشر

خليفة الله ماذا تأمرن بنا
لسنا إليكم ولا في دار منتظر

ما زلت بعدك في هم يؤرقني
قد طال في الحي اصعادي ومنحدري

لا ينفع الحاضر المجهود بادينا
ولا يعود لنا باد على حضر

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا
من الخليفة ما نرجو من المطر

نال الخلافة إذ كانت له قدراً
كما أتى ربه موسى على قدر

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها
فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر[1].

---

(١) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٩٥، ٩٦.

ويروى أنه - أي جرير - دخل عليه، مندوباً عن أهل الحجاز، فاستأذنه في الإنشاد، فقال عمر:

- مالي وللشعر يا جريري؟! .. إني لفي شغل عنه!

- يا أمير المؤمنين، إنها رسالة عن أهل الحجاز..

- فهاتها إذن..

فأنشد:

كم من ضرير أمير المؤمنين لدى
أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابت السنة الشهباء ما ملكت
يمينه فحناه الجهد والكبر
ومن قطيع الحشا عاشت مخبأة
ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر
لما اجتلتها صروف الدهر كارهة
قامت تنادي بأعلى الصوت: يا عمر[1]

ولقد قال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز:

ينعي النعاة أمير المؤمنين لنا
يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاصطبرت له
وقمت فيه بأمر الله يا عمرا

---

(١) المصدر السابق. ج ٢ ص ٨٤.

فالشمس طالعة ليست بكاسفة
تبكي عليك نجوم الليل والقمرا[1].

- ١٥ -

عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة دخل عليه السدي، إسماعيل بن عبد الرحمن (١٢٨ هـ)، وكان من خاصته، ودار بينهما حوار، بدأه عمر:

- أسرك ما وليت، أم ساءك؟..
- سرني للناس، وساءني لك!..
- إني أخاف أن أكون قد أوبقت نفسي!..
- ما أحسن حالك إن كنت تخاف!..
- عظني.
- أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة؟![2].

- ١٦ -

ودخلت عليه عمته فاطمة بنت مروان تريد جداله كي يعدل عن مصادرته أموال أمراء بني أمية، التي اعتبرها مظالم وأعادها إلى بيت مال المسلمين.. ودار بينها وبينه هذا الحوار الذي بدأته:

- انه قد عناني أمر لا بد من لقائك فيه.
- تكلمي يا عمة، فأنت أولى بالكلام، لأن الحاجة لك.

---

(١) «العقد الفريد» ج ٣ ص ٢٨٦.
(٢) «مروج الذهب» ج ٢ ص ١٤٤.

ـ تكلم أنت يا أمير المؤمنين! . .

ـ ان الله، تبارك وتعالى، بعث محمداً، ﷺ، رحمة، لم يبعثه عذاباً، إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده، فقبضه إليه، وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء. ثم قام أبو بكر، فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر، فعمل على عمل صاحبه. فلما ولي عثمان اشتق من النهر نهراً. ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار. ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد، ومروان، وعبد الملك، والوليد، وسليمان، حتى أفضى الأمر إلي. وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه!

ـ قد أردت كلامك ومذاكرتك. فأما إذا كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً أبداً؟!(1).

ـ ١٧ ـ

ونظر عمر إلى نفر من بني أمية، وحاورهم قائلاً:

ـ إني أرى رقاباً سترد إلى أربابها. . أدوا ما في أيديكم من حقوق الناس، ولا تلجئوني إلى ما أكره، فأحملكم على ما تكرهون!

ـ . . . .

ـ أجيبوني! . .

فقال رجل منهم:

---

(1) «الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٧٥، ٣٣٧٦.

ـ والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا، فنفقر أبناءنا ونكفر آباءنا، حتى تزايل رؤوسنا أجسادنا!.

ـ أما والله لولا أن تستعينوا علي بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم عاجلاً، ولكنني أخاف الفتنة، ولئن أبقاني الله لأردن إلى كل ذي حق حقه، إن شاء الله![1].

ـ ١٨ ـ

في بيت عمر بن عبد العزيز «بخناصرة» دارت المناظرة بينه وبين مندوبين عن ثوار الخوارج الذين تزعمهم بالجزيرة شوذب الخارجي.. ولقد بدأ عمر الحوار:

ـ أخبراني ما الذي أخرجكم عن حكمي هذا؟ وما نقمتم علي؟

ـ إنا والله ما نقمنا عليك سيرتك، وتحريك العدل والاحسان إلى من وليت، ولكن بيننا وبينك أمراً إن أعطيتناه فنحن منك وأنت منا، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك.

ـ وما هو؟

ـ رأيناك خالفت أهل بيتك وسميتها مظالم وسلكت غير طريقهم، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وأبرأ منهم، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق.

---

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٤٣٧.

- إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها، واني سائلكما عن أمر، فبالله أصدقاني فيه مبلغ علمكما.

- نعم.

- اخبراني عن أبي بكر وعمر، أليسا من أسلافكما، ومن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة؟

- اللهم نعم.

- فهل علمتما ان أبا بكر حين قبض رسول الله، ﷺ، فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسبى الذراري..؟

- نعم.

- فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر فرد تلك السبايا إلى عشائرها؟

- نعم.

- فهل بريء عمر من أبي بكر؟ أو تبرؤون أنتم من أحد منهما؟

- لا.

- فاخبراني عن أهل النهروان، أليسوا من صالحي أسلافكم، وممن تشهدون لهم بالنجاة؟.

ـ نعم.

ـ فهل تعلمون ان أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم، فلم يسفكوا دماً، ولم يخيفوا آمناً، ولم يأخذوا مالاً؟

ـ نعم.

ـ فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر ابن فديك استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت، صاحب رسول الله ﷺ، فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم قتلوا النساء والأطفال، حتى جعلوا يلقونهم في قدور الأقط[1] وهي تفور؟

ـ قد كان ذلك.

ـ فهل برىء أهل الكوفة من أهل البصرة؟

ـ لا.

ـ فهل يبرؤون من إحدى الفئتين؟

ـ لا.

ـ أفرأيتم الدين، أليس هو واحد؟ أم الدين اثنان؟

ـ بلى واحد.

فهل يسعكم منه شيء يعجزني؟

---

(١) طعام يتخذ من اللبن المخيض «الرائب» المتجمد بعد طبخه.

ـ لا.

ـ فكيف وسعكم ان توليتم أبا بكر وعمر، وتولى كل واحد منهما صاحبه، وتوليتم أهل الكوفة والبصرة، وتولى بعضهم بعضاً، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: الدماء، والفروج، والأموال، ولا يسعني إلا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم؟! أو رأيت أن لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها؟! فإن كان ذلك فمتى عهدك بلعن فرعون، وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟!

ـ ما أذكر أني لعنته!

ـ ويحك! أيسعك ألا تلعن فرعون، وهو أخبث الخلق، ولا يسعني إلا أن ألعن أهل بيتي والبراءة منهم ويحكم! إنكم قوم جهال أردتم أمراً فأخطأتموه، فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ بعثه الله إليهم وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى ان يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فمن قال ذلك حقن بذلك دمه، وأحرز ماله، ووجبت حرمته، وأمن به عند رسول الله ﷺ، وكان أسوة المسلمين، وكان حسابه على الله. أفلستم تلقون من خلع الأوثان، ورفض الأديان، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، تستحلون دمه وماله، ويلعن عندكم، ومن ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وأهل الأديان فتحرمون دمه وماله، ويأمن عندكم؟!

ـ ما سمعت كاليوم أحداً أبين حجة، ولا أقرب مأخذاً. أه

أنا فأشهد أنك على الحق، وإني بريء ممن برئ منك. . ما أحسن ما قلت ووصفت. . لكن اخبرنا عن يزيد بن عبد الملك، لم تقره خليفة بعدك؟!

ـ صيره غيري!

ـ أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك، ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أفتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك؟!

ـ انظراني ثلاثاً!

ـ وأنا أيضاً لا أفتات على الناس ـ أصحابنا ـ بأمر حتى ألقاهم بما ذكرت، وأنظر حجتهم.

ـ أنت وذاك[1]. .

ومن خطب عمر بن عبد العزيز:

أيها الناس. والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سر ولا علانية. والله ما أردتها ولا تمنيتها. فمن كان كارهاً لشيء مما وليته فالآن.

أيها الناس. أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم، واصلحوا آخرتكم تصلح دنياكم، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق في الموت.

---

(1) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٤٠١ ـ ٤٠٣. و «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٥٦.

أيها الناس. انه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب. ألا أن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة، ألا أني لست بقاض ولكني منفذ. ألا أني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا انه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله، ألا أني لست بخيركم ولكني رجل منكم غير أني أثقلكم حملاً. اتقوا الله واعطوا الحق من أنفسكم، وردوا المظالم، فإني والله ما أصبحت بي موجدة على أحد من أهل القبلة إلا موجدة على ذي إسراف حتى يرده الله إلى قصد[1].

- ٢٠ -

ومن خطبه:

ان لكل سفر زاداً لا محالة، فتزودوا من دنياكم لآخرتكم بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه، فترهبوا وترغبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه، والله، ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه، أو يمسي بعد إصباحه، وربما كانت بين ذلك خطرات المنايا، وإنما يطمئن إلى الدنيا من أمن عواقبها،

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٤٣٣، ٩٢. و«طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٥٠، ٢٥١، ٢٩٢.

فإن من يداوي من الدنيا كلما أصابت جرايحه من ناحية أخرى، فكيف يطمئن إليها؟!...

أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر عيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق[1].

- ٢١ -

ومن خطبه:

وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم، حتى نستوي نحن بهم، وأكون أنا أولهم. مالي وللدنيا أم مالها ومالي؟![2].

- ٢٢ -

ومن خطبه:

أيها الناس. انه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد ﷺ، ألا واني لست بقاض، ولكني منفذ، ألا واني لست بمبتدع، ولكني متبع.

إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص، ولكن

---

(١) المصدر السابق، ج ٤ ص ٩٢.
(٢) المصدر السابق، ج ٤ ص ٩٣.

الإمام الظالم هو العاصي. ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق(١).

- ٢٣ -

ومن خطبه:

أيها الناس. انكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وان لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم جنة عرضها السموات والأرض.

ألا واعلموا أن الأمان غدا لمن يخاف اليوم، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق، وخوفاً بأمان.

ألا ترون انكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، حتى تردوا إلى خير الوارثين، ثم انكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله، قد قضى نحبه، وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، فسكن التراب، وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه.

وأيم الله، اني لأقول هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم

---

(١) «مروج الذهب» ج ٢ ص ١٤٥.

من الذنوب أكثر مما عندي، فاستغفر الله لي ولكم، وأتوب إليه.

وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ولحمتي الذين يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم.

وأيم الله اني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً، عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، دل فيهما على طاعته، ونهى عن معصيته.

أيها الناس. من وصل إلينا منكم بحاجته لم نأله خيراً، ومن عجز، فوالله لوددت أنه وآل عمر في العجز سواء[1].

ـ ٢٤ ـ

ومن خطبه:

أيها الناس. لا تستصغروا الذنوب، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها. «إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين»[2] وقال عز وجل: «والذين إذا فعلوا فاحشة

---

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٩٥. و«تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٧٠، ٥٧١. و«الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٨٦.

(٢) هود: ١١٤.

أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون»[1] [2].

- ٢٥ -

ومن خطبه:

أيها الناس. إنما نحن من أصول قد مضت فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟.. وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا، وهم فيها نصب المصائب مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله![3].

- ٢٦ -

ومن خطبه:

أيها الناس. الحقوا ببلادكم، فإني أذكركم ببلادكم، وانساكم عندي. الا واني قد استعملت عليكم رجالاً لا أقول هم خياركم، ولكنهم خير ممن هو شر منهم! فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي.

---

(١) آل عمران: ١٣٥.

(٢) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٤٣٧.

(٣) «مروج الذهب» ج ٢ ص ١٤٤.

والله لئن منعت هذا المال نفسي وأهلي ثم بخلت به عليكم اني إذا لضنين.

والله لولا أن العيش سنة وأسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقاً[1]!..

- ٢٧ -

ومن خطبه:

أيها الناس. اتقوا الله فإن في تقوى الله خلفاً من كل شيء دونه، وليس لتقوى الله خلف.

أيها الناس. اتقوا الله وأطيعوا من أطاع الله، ولا تطيعوا من عصى الله[2].

- ٢٨ -

ومن خطبه:

أيها الناس. من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه. فاتقوا الله، فإنها نصيحة لكم في دينكم، فاقبلوها، وموعظة منجية في العواقب فالزموها.

---

(١) «طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٥٣. «والفواق: ترجيع الشهقة العالية».

(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٤.

الرزق مقسوم، فلن يغدر المؤمن ما قسم له، فاجملوا في الطلب، فإن في القنوع سعة وبلغة وكفافاً.

ان أجل الدنيا في أعناقكم، وجهنم أمامكم، وما ترون ذاهب، وما مضى فكأن لم يكن، وكل أموات عن قريب، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق، وبعد فراغه وقد ذاق الموت، والقوم حوله يقولون: قد فرغ، رحمه الله!.. وعاينتم تعجيل إخراجه، وقسمة تراثه، ووجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور، وكأن لم يخالط! اخوان الحفاظ ولم يعمر الديار.

فاتقوا هول يوم لا تحقر فيه مثقال ذرة في الموازين![1].

- ٢٩ -

ولقد أمر عمر بن عبد العزيز بوضع قانون يحدد سنة الاسلام في مصارف الأموال، فنفذ ابن شهاب صياغته:

«هذه منازل الصدقات ومواضعها إن شاء الله، وهي ثمانية أسهم:

فسهم للفقراء، وسهم للمساكين، وسهم للعاملين عليها، وسهم للمؤلفة قلوبهم، وسهم في الرقاب، وسهم للغارمين، وسهم في سبيل الله، وسهم لابن السبيل.

فسهم الفقراء: نصفه لمن غزا منهم في سبيل الله، أول

---

(١) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٧١، ٥٧٢.

غزوة، حين يفرض لهم من الامداد، وأول عطاء يأخذونه، ثم تقطع عنهم بعد ذلك الصدقة، ويكون سهمهم في عظم الفيء. والنصف الباقي للفقراء ممن لا يغزون، من الزمن[1] والمكث الذين يأخذون العطاء. إن شاء الله.

وسهم المساكين: نصفه لكل مسكين به عاهة لا يستطيع حيلة ولا تقلباً في الأرض، والنصف الباقي للمساكين الذين يسألون ويستطعمون، ومن في السجون من أهل الاسلام، ممن ليس له أحد، إن شاء الله.

وسهم العاملين عليها: ينظر، فمن سعى على الصدقات بأمانة وعفاف، أعطي على قدر ما ولي وجمع من الصدقة، وأعطي عماله الذين سعوا معه على قدر ولايتهم وجمعهم، ولعل ذلك أن يبلغ قريباً من ربع هذا السهم، ويبقى هذا السهم بعد الذي يعطي عماله ثلاثة أرباع، فيرد ما بقي على من يغزو من الأمداد[2] والمشترطة، إن شاء الله.

وسهم المؤلفة قلوبهم: لمن يفترض له من أمداد الناس أول عطاء يعطونه ومن يغزو مشترطاً لاعطاء له، وهم فقراء، ومن يحضر المساجد من المساكين الذين لا عطاء لهم، ولا سهم، ولا يسألون الناس، إن شاء الله.

---

(١) ذوي العاهات المزمنة التي اقعدتهم عن السعي.

(٢) أي مدد الجيش المحارب.

وسهم الرقاب: نصفان، نصف لكل مكاتب[1] يدعي الاسلام، وهم على أصناف شتى: فلفقهائهم. في الاسلام فضيلة، ولمن سواهم منهم منزلة أخرى. على قدر ما أدى كل رجل منهم، وما بقي عليه، إن شاء الله. والنصف الباقي تشترى به رقاب ممن قد صلى وصام وقدم في الاسلام، من ذكر وأنثى، فيعتقون، إن شاء الله.

وسهم الغارمين: على ثلاثة أصناف: منهم صنف لمن يصاب في سبيل الله في ماله وظهره[2] ورقيقه، وعليه دين لا يجد ما يقتضي ولا ما يستنفق[3] إلا بدين. ومنه صنفان لمن يمكث ولا يغزو، وهو غارم، وقد أصابه فقر، وعليه دين لم يكن شيء منه في معصية الله، ولا يتهم في دينه، إن شاء الله.

وسهم في سبيل الله: فمنه لمن فرض له ربع هذا السهم، ومنه للمشترط الفقير ربعه، ومنه لمن تصيبه الحاجة في ثغره، وهو غاز في سبيل الله، إن شاء الله.

وسهم ابن السبيل: يقسم ذلك لكل طريق على قدر من

---

(١) المكاتب: الرقيق يتعاقد مع سيده على أن يعتقه مقابل مال يدفعه له لقاء تحريره.

(٢) الظهر: دابة الحمل والركوب ووسيلة الانتقال.

(٣) أي ينفق.

يسلكها ويمر بها من الناس، لكل رجل من ابن السبيل ليس له مأوى، ولا أهل يأوي اليهم، فيطعم حتى يجد منزلاً او يقضي حاجته، ويجعل في منازل معلومة على أيدي أمناء لا يمر بهم ابن سبيل له حاجة إلا آووه وأطعموه وعلفوا دابته، حتى ينفد ما بأيديهم، إن شاء الله.. الخ الخ.. الخ[1].

- ٣٠ -

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار في النبيذ:

أما بعد، فإن الناس كان منهم في هذا الشراب المحرم امر ساءت فيه رغبة كثير منهم حتى سفه احلامهم، وأذهب عقولهم، فاستحل به الدم الحرام، والفرج الحرام، وان رجالاً منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون: شربنا طلاء، فلا بأس علينا في شربه.

ولعمري، ان فيما قرب مما حرم الله بأساً، وان في الأشربة التي أحل الله: من العسل، والسويق، والنبيذ من الزبيب والتمر لمندوحة عن الأشربة الحرام، غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا ينبذ إلا في أسقية الأدم[2] التي لا زفت فيها، ولا يشرب منها ما يسكر، فإنه بلغنا أن رسول

---

(١) «الأموال» لابن سلام. ص ٧٦٤، ٧٦٥. «وهذا هو القدر الذي ذكره ابن سلام من تشريع عمر بن عبد العزيز. ولقد أضاف أنه اشتمل على ما هو أكثر».

(٢) الجلد المدبوغ.

الله ﷺ، نهى عن شرب ما جعل في الجرار، والدباء[1]، والظروف المزفتة. وقال: «كل مسكر حرام»[2].

فاستغنوا بما أحل الله لكم عما حرم عليكم. وقد أردت بالذي نهيت عنه منه - شرب الخمر وما ضارع الخمر من الطلاء، وما جعل في الدباء والجرار والظروف المزفتة، وكل مسكر - اتخاذ الحجة عليكم. فمن يطع منكم فهو خير له، ومن يخالف إلى ما نهى عنه نعاقبه على العلانية، ويكفينا الله ما أسر، فإنه على كل شيء رقيب. ومن استخفى بذلك عنا فإن الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً[3].

- ٣١ -

ولقد قام حوار بين عمر بن عبد العزيز وبين عامله على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن، بواسطة المراسلات، بدأه عمر بن عبد العزيز:

- أخرج للناس أعطياتهم.

- اني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال؟..

---

(١) مفردها: دباءة، وهو نبات القرع.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارمي ومالك وابن حنبل.

(٣) العقد الفريد ج ٦ ص ٣٥٩، ٣٦٠.

ـ أنظر كل من اداَّن ـ بتشديد الدال المفتوحة ـ[1] في غير سفه ولا سرف، فاقض عنه.

ـ اني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مال؟

ـ أنظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه، واصدق عنه[2].

ـ اني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال؟..

ـ أنظر من كان عليه جزيةٌ، فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فانّا لا نريدهم لعام ولا لعامين[3].

ـ ٣٢ ـ

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته بأحقية الأرض لمن يزيل عنها الماء، أي يجففها ويستصلحها للزرع، فقال: «من غلب الماء على شيء فهو له»[4].

ـ ٣٣ ـ

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على امارة «عمان» حول تشريع ضريبة صيد الأسماك:

---

(١) أي استدان دينا.

(٢) أي ادفع صداق زواجه ـ «مهره» ـ نيابة عنه.

(٣) «الأموال» لابن سلام. ص ٣٥٧، ٣٥٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٠١، ٤٠٢.

«ألا تأخذ من السمك شيئاً حتى يبلغ مائتي درهم.. فإذا بلغ مائتي درهم فخذ منه الزكاة»[1]..

- ٣٤ -

وكتب إلى عامله على امارة «واسط» حول توقيت جباية زكاة التجارة، فقال:

«الا تأخذوا من أرباح التجار شيئاً حتى يحول عليها الحول»[2]..

- ٣٥ -

وجرى حوار بين عمر بن عبد العزيز وبين عامله على خراسان الجراح بن عبد الله، بواسطة المراسلات، بدأه عمر:

- أنظر من صلى قبلك إلى القبلة، فضع عنه الجزية.

- إن الناس قد سارعوا إلى الاسلام، وإنما ذلك نفوراً من الجزية، فامتحنهم بالختان!..

- إن الله بعث محمداً ﷺ، داعياً ولم يبعثه خاتناً!..

- اني قدمت خراسان فوجدت قوماً قد أبطرتهم الفتنة فهم ينزون فيها نزواً، أحب الأمور إليهم أن تعود ليمنعوا حق الله

---

(١) المصدر السابق. ص ٤٨٢.

(٢) المصدر السابق. ص ٥٦٩.

عليهم، فليس يكفهم إلا السيف والسوط، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك!..

ـ يا ابن أم الجراح! أنت أحرص على الفتنة منهم، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق، وأحذر القصاص فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها[1].

ـ ٣٦ ـ

وبعد عزل عمر بن عبد العزيز للجراح بن عبد الله عن ولاية خراسان، ولى عليها عبد الرحيم بن مغيم، وكتب اليه:

أما بعد، فكن عبداً ناصحاً لله في عباده، ولا يأخذك في الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، فلا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعى، وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق، فإن الله لا تخفى عليه خافية، ولا تذهبن على الله مذهباً فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه[2].

ـ ٣٧ ـ

وكتب عمر بن عبد العزيز، بعد توليه الخلافة، إلى يزيد بن المهلب، عامل العراق:

---

(١) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٥٩، ٥٦٠.

(٢) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٦١، ٥٦٢.

أما بعد. فإن سليمان ـ بن عبد الملك ـ كان عبداً من عبيد الله، أنعم الله عليه، ثم قبضه واستخلفني، ويزيد بن عبد الملك من بعدي، إن كان.

وأن الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس علي بهين، ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقاد[1] أموال، كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً، ومسألة غليظة، ألا ما عافى الله ورحم.

وقد بايع من قبلنا، فبايع من قبلك[2].

ـ ٣٨ ـ

وكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم:

إن العمل والعلم قريبان، فكن عالماً بالله عاملاً له، فإن أقواماً علموا ولم يعملوا، فكان علمهم عليهم وبالاً.. فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين[3].

ـ ٣٩ ـ

وكتب إلى عامله على سمرقند: سليمان بن أبي السري:

---

(١) أي جمعها وحيازتها.

(٢) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٦٧.

(٣) المصدر السابق ج ٦ ص ٥٦٧.

أن اعمل خانات في بلادك، فمن مر بك من المسلمين فاقروهم يوماً وليلة، وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقووه بما يصل به إلى بلده[1].

- ٤٠ -

وكتب إلى عامل الخراج بخراسان عقبة بن زرعة الطائي:

إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها:

- فالوالي ركن..
- والقاضي ركن..
- وصاحب بيت المال ركن..
- والركن الرابع أنا..

وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلي، ولا أعظم عندي من ثغر خراسان، فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم، فإن يك كفافاً لأعطياتهم فسبيل ذلك، وإلا فاكتب إلي حتى احمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم، وأقسم الفضل في أهل الحاجة[2].

---

(١) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٦٧.

(٢) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٦٨.

- ٤١ -

وكتب إلى أحد عماله:

وقد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فاما عدلت، وإما اعتزلت. والسلام![1].

- ٤٢ -

وكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن:

سلام عليك. أما بعد. فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء شديد، وجور في احكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء.

وان قوام الدين العدل والاحسان، فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك، فإنه لا قليل من الاثم! وأنظر الأرض، ولا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب، وانظر الخراب، فإن أطاق شيئاً فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من عامر لا يحتمل شيئاً، وما أجدب من العامر من الخراج فخذه في رفق وتسكين لأهل الأرض.

وآمرك ألا تأخذ في الخراج إلا وزن سبعة ليس فيها تبر، ولا اجور الضرابين، ولا إذابة الفضة، ولا هدية النيروز،

---

(١) «مروج الذهب» ج ٢ ص ١٤٥.

والمهرجان، ولا ثمن الصحف، ولا أجور الفيوج[1]، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح.

ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض. فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله.

ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه.

وانظر من أراد من الذرية أن يحج، فعجل له مائة يحج بها. والسلام[2].

- ٤٣ -

وكتب إليه أيضاً:

كتبت إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون، من اليهود والنصارى والمجوس، وعليهم جزية عظيمة، وتستأذنني في أخذ الجزية منهم.

وان الله، جل ثناؤه، بعث محمداً ﷺ، داعياً إلى الاسلام، ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة، ولا جزية عليه وميراثه لذوي رحمة إذا كان منهم، يتوارثون كما يتوارث أهل الاسلام، وإن لم يكن له وارث

---

(١) رسل السلطان وحملة كتبه.

(٢) «الخراج» لأبي يوسف: ص ٨٦. «وتاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٦٩.

فميراثه في بيت مال المسلمين الذي يقسم بين المسلمين، وما أحدث من حدث ففي مال الله الذي يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه. والسلام[1].

- ٤٤ -

وكتب إلى عدي بن ارطاة:

بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى عدي بن أرطأة، ومن قبله من المسلمين والمؤمنين.

سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد. فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه، وقاصه من جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بد من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق..

وبلغني أنك تأخذ من الخمر العشور، فتبقيه في بيت مال الله، فإياك أن تدخل بين مال الله إلا طيباً. والسلام عليكم[2].

- ٤٥ -

وكتب إليه أيضاً:

(١) «الخراج» لأبي يوسف: ص ١٣١، ١٣٢.

(٢) «طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٨٠.

بلغني أن عمالك بفارس يخرصون[1] الثمار على أهلها، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به، فيأخذونه ورقاً على قيمتهم التي قوموها.

وان طوائف من الأكراد يأخذون العشر من الطريق، ولو علمت أنك أمرت بشيء من ذلك أو رضيته، بعد علمك به، ما ناظرتك إن شاء الله بما تكره.

وقد بعثت بشر بن صفوان، وعبد الله بن عجلان، وخالد بن سالم ينظرون في ذلك، فإن وجدوه حقاً ردوا إلى الناس الثمر الذي أخذ منهم، وأخذوا بسعر ما باع أهل الأرض عليهم، ولا يدعون شيئاً مما بلغني إلا نظروا فيه. فلا تعرض لهم[2].

- ٤٦ -

وكتب إليه أيضاً:

أما بعد. فإن امكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك. وأعلم أن ما لك عند الله مثل ما للرعية عندك[3].

---

(١) يقدرون، حدساً وتخميناً.

(٢) «طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(٣) «العقد الفريد» ج ١ ص ٤٠.

- ٤٧ -

وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز:

إني بأرض كثرت فيها النعم ، وقد خفت على من قبلي من المسلمين قلة الشكر، والضعف عنه!

فأجابه عمر:

إن الله تعالى لم ينعم على قوم نعمة، فحمدوه عليها، إلا كان ما أعطوه أكثر مما أخذوا. واعتبر ذلك لقول الله تعالى: «ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا» [(١)]. فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان [(٢)]؟!

- ٤٨ -

وكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم:

. . . ولا تجروا شاة إلى مذبحها، ولا تحدوا الشفرة على رأس الذبيحة[(٣)]؟!

- ٤٩ -

وكتب إلى حميد بن سلمة:

---

(١) النمل: ١٥ .

(٢) «العقد الفريد» ج ١ ص ٢٧٨ .

(٣) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٧٢ .

أما بعد. فاصلح الذي بينك وبين الله، واعلم أني قد اشركتك في أمانة عظيمة، فإن ضيعت حقاً من حقوق الله كنت أهون خلقه عليه، ثم لا يغني عنك عمر من الله شيئاً[1].

- ٥٠ -

وكتب إلى أبي بكر محمد بن عمر بن حزم:

... وإياك والجلوس في بيتك. أخرج للناس فآس بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد، ولا تقولن: هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي سواء. بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم!..

وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلي فيه[2].

- ٥١ -

وكتب إلى عماله:

أحيوا السنة، وأميتوا البدع... وانه ينبغي لكم أن يكون ظنكم بي أن لا حاجة لي في أموالكم، لا ما في يدي ولا ما في

---

(١) «طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٩٠.

(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٥٢، ٢٥٣.

أيديكم، انه حري على من انتهك معاصي الله في عقوبته إياه[1].

ـ ٥٢ ـ

وكتب إلى عماله في النياحة واللهو:

بلغني أن نساء من أهل السفه يخرجن عند موت الميت منهن ناشرات شعورهن، ينحن كفعل أهل الجاهلية وما رخص النساء في وضع خمرهن منذ أمرن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن. فتقدموا في هذه النياحة تقدماً شديداً.

وقد كانت هذه الأعاجم تلهو بأشياء زينها الشيطان لهم، فازجر من قبلك من المسلمين عن ذلك، فلعمري لقد آن لهم أن يتركوا ذلك، مع ما يقرؤون من كتاب الله، فازجر عن ذلك الباطل واللهو من الغناء وما أشبه، فإن لم ينتهوا فنكل من أتى ذلك منهم، غير متعد في النكال[2].

ـ ٥٣ ـ

وكتب إلى سليمان بن أبي كريمة:

ان أحق العباد بإجلال الله والخشية منه من ابتلاه مثل ما

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٧، ٢٧٨.
(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٩٠.

ابتلاني به، ولا أحد أشد حساباً ولا أهون على الله، ان عصاه، مني، فقد ضاق بما أنا فيه ذرعي، وخفت أن تكون منزلتي التي أنا بها هلاكاً لي، إلا أن يتداركني الله منه برحمته.

وقد بلغني أنك تريد الخروج في سبيل الله، فأحب يا أخي، إذا أخذت موقفك أن تدعو الله أن يرزقني الشهادة، فإن حالي شديدة، وخطري عظيم، فاسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني به أن يرحمني ويعفو عني[1].

- ٥٤ -

وكتب - قرب وفاته - إلى يزيد بن عبد الملك:

سلام عليك. أما بعد. فإني لا أراني إلا لما بي، ولا أرى الأمر إلا سيفضى إليك، والله الله في أمة محمد النبي، ﷺ، فتدع الدنيا لمن لا يحمدك، وتفضي إلى من لا يعذرك. فإياك أن تدركك الصرعة عند العزة، فلا تقال العثرة، ولا تمكن من الرجعة، ولا يحمدك من خلفت، ولا يعذرك من تقدم عليه. والسلام[2].

- ٥٥ -

وكتب إلى الجراح، يوصيه في الحرب:

---

(١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٩١، ٢٩٢.

(٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٠٠.

انه يلغني أن رسول الله، ﷺ، كان إذا بعث جيشاً أو سرية قال: اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا[1]، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً.

فإذا بعثت جيشاً أو سرية فمرهم بذلك[2].

- ٥٦ -

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أسارى المسلمين في سجون الروم بالقسطنطينية:

أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، ولستم أسارى. معاذ الله! أنتم الحبساء في سبيل الله. واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه. وقد بعثت إليكم خمسة دنانير، خمسة دنانير. ولولا أني خشيت ان زدتكم أن يحبسه عنكم طاغية الروم لزدتكم.

وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حركم ومملوككم بما يسأل فأبشروا ثم أبشروا[3].

---

(١) أي لا تخونوا.

(٢) «العقد الفريد» ج ١ ص ١٢٨.

(٣) «الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٨٥، ٣٣٨٦.

- ٥٧ -

وكتب إليه عامله على حمص:

ان مدينة حمص قد تهدم حصنها، فإن رأى أمير المؤمنين ان يأذن لي في إصلاحه؟..

فأجابه عمر بن عبد العزيز:

أما بعد: فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم! والسلام[1].

- ٥٨ -

وكتب إلى واليه على أرض الفرات:

ان دع لأهل الخراج من أهل الفرات ما يتختمون به الذهب، ويلبسون الطيالسة، ويركبون البراذين، وخذ الفضل[2].

- ٥٩ -

وكتب إلى عدي بن أرطأة:

غرني منك مجالستك القراء، وعمامتك السوداء، فلما بلوناك

---

(١) ابن قتيبة «عيون الاخبار» ج ١ ص ١٣، طبعة دار الكتب المصرية. و «العقد الفريد» ج ١ ص ٣١.

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٣.

وجدناك على خلاف ما أملناك. قاتلكم الله! أما تمشون بين المقابر[1]؟!

- ٦٠ -

وكتب إلى بعض عماله:

أما بعد، فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم، فاذكر قدرة الله عليك، وفناء ما تؤتي إليهم، وبقاء ما يؤتون إليك. والسلام[2].

- ٦١ -

وكتب إلى رجاء بن حيوة:

أما بعد. فإنه من أكثر من ذكر الموت أكتفى باليسير، ومن علم أن الكلام عمل قل كلامه إلا فيما ينفعه.

- ٦٢ -

وكتب إلى من عزاه في ابنه:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد. فإن هذا الأمر أمر قد كنا وطنا أنفسنا عليه، فلما نزل لم ننكره. والسلام[3].

(١) المصدر السابق. ج ١ ص ٥٧.
(٢) المصدر السابق. ج ١ ص ٧٩.
(٣) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٧١.

- ٦٣ -

وأوصى قائد جيشه، عمرو بن قيس:

يا عمرو، لا تكن أول الناس فتقتل فينهزم أصحابك، ولا تكن آخرهم فتثبطهم وتجبنهم، ولكن كن وسطهم حيث يرون مكانك، ويسمعون كلامك.

وفاد من قدرت عليه من المسلمين وأرقائهم وأهل ذمتهم[1].

وكتب مجيباً من كتب إليه معزياً:

حسبي حياة الله من كل ميت
وحسبي بقاء الله من كل هالك
إذا ما لقيت الله عني راضياً
فإن شفاء النفس فيما هنالك[2].

- ٦٥ -

وكتب إلى رجل له عليه دين:

قد آن للحق الذي عندك أن يرجع إلى أهله، ونستغفر الله تعالى من حبسه[3]!..

---

(١) «طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٧٢.
(٢) «عيون الأخبار» ج ٣ ص ٥٤.
(٣) «عيون الأخبار» ج ١ ص ٢٥٨.

- ٦٦ -

وقال لغلامه مزاحم:

ان الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها او فعالاً تحبه فعظني عنده وانهني عنه[1].

- ٦٧ -

وكان معتاداً على أن يردد:

تسر بما يبلى وتفرح بالمنى
كما اغتر باللذات في النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة
وليلك نوم والردى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبه
كذلك في الدنيا تعيش البهائم

كم من مستقبل يوماً ليس بستكمله، ومنتظر غداً ليس من أجله، لو رأيتم الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره.

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا
ليل يكر عليهم ونهار

- ٦٨ -

وكان لعمر بن عبد العزيز ولد صالح يدعى عبد الملك،

(١) المصدر السابق. ج ٢ ص ١٨.

مات في حياته، فلما حضرته الوفاة حاوره عمر حواراً بدأه بقوله:

- كيف تجدك؟..

- في الموت!..

- لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك!..

- وأنا والله لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب؟![1].

- ٦٩ -

وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي:

- عظني..

- لا أرضى نفسي لك، إني لأصلي بين الغني والفقير، فأميل على الفقير وأوسع للغني[2]!..

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب والياً لعمر بن عبد العزيز على المدينة، وكان يراجع عمر إذا طلب منه رد المظالم لأصحابها، فكتب إليه عمر:

---

(١) المصدر السابق. ج ٢ ص ٣١٢.

(٢) المصدر السابق. ج ٢ ص ٢٧٠.

انه يخيل إلي أني لو كتبت إليك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إلي: أضأنا أم معزاً؟!.. ولو كتبت إليك بأحدهما، لكتبت إلي: أذكراً أم أنثى؟!.. ولو كتبت إليك بأحدهما، لكتبت إلي: أصغيراً أم كبيراً؟!

فإذا كتبت إليك في مظلمة فنفذ أمري، ولا تراجعني فيها[1].

- ٧١ -

وعندما مات ابنه عبد الملك كتب إلى عماله:

إن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله، أحسن الله إليه وإلي فيه، أعاشه ما شاء وقبضه حين شاء، وكان - ما علمت - من صالحي شباب أهل بيته قراءة للقرآن، وتحرياً للخير، أعوذ بالله أن تكون لي محبة أخالف فيها محبة الله، فإن ذلك لا يحسن في إحسانه إلي، وتتابع نعمه علي، ولأعلمن ما بكت عليه باكية ولا ناحت عليه نائحة، فقد نهينا أهله الذين هم أحق بالبكاء عليه[2].

- ٧٢ -

ودار بينه، يوماً، وبين ولده عبد الملك حوار بدأه الابن بقوله:

---

(١) «العقد الفريد» ج ٣ ص ٩.

(٢) المصدر السابق. ج ٣ ص ٣٠٩.

ـ يا أبت، مالك لا تنفذ في الأمور؟!.. فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور!..

ـ لا تعجل يا بني! فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه، وتكون فتنة[1].

ـ ٧٣ ـ

ودخل عليه ابنه عبد الملك يوماً، وهو ينام نومة الضحى، وحاوره:

ـ يا أبت، أتنام وأصحاب الحوائج راكدون ببابك؟!

ـ يا بني أن نفسي مطيتي، فإن أنا أنضيتها[2] قطعتها، ومن قطع المطي لم يبلغ الغاية!..

ـ ٧٤ ـ

وأجاب عمر بن عبد العزيز محمد بن الوليد بن عتبة عندما خطب إليه أخته ليتزوجها، قائلاً:

الحمد لله ذي العزة والكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء.

---

(١) المصدر السابق. ج ٤ ص ٤٠.

(٢) أتعبتها وأجهدتها.

أما بعد. فقد حسن ظن من أودعك حرمته، واختارك ولم يختار عليك، وقد زوجناك على ما في كتاب الله، امساك بمعروف أو تسريح بإحسان[1].

- ٧٥ -

وأجاب آخر خطب إليه أختاً أخرى:

الحمد لله ذي الكبرياء، وصلى الله على خاتم الأنبياء.

أما بعد، فإن الرغبة منك دعت إلينا، والرغبة فيك أجابت منا. وقد زوجناك على ما في كتاب الله: امساك بمعروف أو تسريح بإحسان[2].

- ٧٦ -

في مرض عمر بن عبد العزيز دخل عليه مسلمة بن عبد الملك، ودار بينهما حوار بدأه مسلمة:

- يا أمير المؤمنين، انك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة، ولا بد لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم الي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم ان شاء الله.

- أجلسوني. فأجلسوه، فقال:

---

(١) «عيون الأخبار» ج ٤ ص ٧٣.

(٢) المصدر السابق. ج ٤ ص ٧٤.

ـ الحمد لله، أبالفقر تخوفني يا مسلمة؟!.. أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم. وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين. وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غيّر وفجر، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه.

ادعوا إلي بني.. بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم! يا بني، إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله.

يا بني، مثلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار.

يا مسلمة، إني حضرت أباك لما دفن، فحملتني عيني عند قبره، فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله راعني وهالني، فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت، وقد اجتهدت في ذلك طول حياتي، وأرجو أن أفضي إلى عفو من الله وغفران.

قوموا، يا بني، عصمكم الله ورزقكم[1].

---

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٤٤٠. و«الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٨٤، ٣٣٨٥.

- ٧٧ -

ولعمر بن عبد العزيز كلمات في الحكمة صارت مضرب الأمثال وموضع الاستشهاد:

● ما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

● من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل.

● دعا للمسلمين بعرفة فقال: اللهم زدني في إحسان محسنهم، وارجع بمسيئهم إلى التوبة، وحط من ورائهم الرحمة.

● خصلتان لا تعدمانك من الجاهل: كثرة الالتفات، وسرعة الجواب.

● إذا دخل عليك رجل لا ترى لك عليه فضلاً، فلا تأخذ عليه شرف المجلس.

● من أشفي غيظي؟ حين أقدر، فيقال لي: لو عفوت؟!.. أو حين أعجز، فيقال لي: لو صبرت؟!

● إياكم والمثلة في العقوبة: جز الرأس واللحية.

● إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا.

● من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح،

ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه . والرضا قليل ، ومعول المؤمن الصبر، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه فاعاضه مما انتزع منه الصبر إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»[1] .

● الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان ضره فاجتنبه، وأمر أشكل أمره عليك فرده إلى الله .

● إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل: علم بما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم على الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاورة أهل العلم والرأي .

● إذا أتاك الخصم، وقد فقئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتي خصمه، فلعله قد فقئت عيناه جميعاً! . .

● إن أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند القدرة .

● كل واعظ قبلة .

● ما أصبح لي اليوم في الأمور هوى إلا في مواقع قضاء الله فيها .

● خمس إن أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة: أن يكون فهيماً، وأن يكون حليماً، وأن يكون عفيفاً، وأن يكون صليباً، وأن يكون عالماً يسأل عما لا يعلم .

---

(١) الزمر: ١ .

● لو كان كل بدعة يميتها الله على يدي، وكل سنة ينعشها الله على يدي ببضعة من لحمي، حتى يأتي آخر ذلك على نفسي، كان في الله يسيراً.

● إن الله لا يؤاخذ العامة بعمل الخاصة، فإذا أظهرت المعاصي فلم تنكر استحقوا العقوبة جميعاً.

● التقي ملجم.

● ما قوم أشبه بالسلف من الأعراب، لولا الجفاء فيهم.

● الحسن البصري: سيد التابعين.

● لو جاءت كل أمة بمنافقيها، وجئنا بالحجاج بن يوسف لفضلناهم!..

● لولا ثلاث لم أحفل متى قام عودي[1]: لولا أن أنفر في السرية، وأقسم بالسوية، وأعدل في القضية.

● وقال لرجل أغضبه: لا عليك، إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً، انصرف إذا شئت!..

● سأله رجل:

- متى أتكلم؟..

---

(١) الذين ينعونني عند الوفاة.

ـ إذا اشتهيت أن تصمت!..

ـ فمتى أصمت؟...

ـ إذا اشتهيت أن تتكلم!..

● إنما الجزع قبل المصيبة، فإذا وقعت فاله عما أصابك.

● ما ولدت أمية مثل خالد بن يزيد، ما استثنى عثمان ولا غيره[1]!..

● الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه!..

* * *

ذلكم هو عمر بن عبد العزيز...

وهكذا تكلم عمر بن عبد العزيز...

---

(١) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٢٣٢.

المصادر

- ابن أبي الحديد: [شرح نهج البلاغة] تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.
- ابن الأثير: [الكامل في التاريخ] طبعة القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ.
- ابن خرداذبة: [المسالك والممالك] طبعة ليدن سنة ١٨٨٩ م.
- ابن خلدون: [المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ؛ [العبر] طبعة القاهرة (بولاق) سنة ١٢٨٤ هـ.
- ابن رستة: [الأعلاق النفيسة] طبعة ليدن سنة ١٨٩١ م.
- ابن سعد: [الطبقات] طبعة دار التحرير. القاهرة.

- ابن عبد ربه: [العقد الفريد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م.
- ابن عساكر: [التاريخ الكبير] طبعة روضة الشام سنة ١٣٣٢ هـ.
- ابن المرتضى: [المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل] مخطوط مصور بدار الكتب المصرية.
- أبو عبيد القاسم بن سلام: [الأموال] طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ وسنة ١٩٦٨ م.
- أبو يوسف: [كتاب الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ.
- الأصفهاني: [الأغاني] طبعة دار الشعب. القاهرة.
- البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن): [مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م.
- البلاذري: [فتوح البلدان] طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ.
- جمال الدين القاسمي: [تاريخ الجهمية والمعتزلة] طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
- الجهشياري: [الوزراء والكتاب] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.
- الطبري: [التاريخ] طبعة دار المعارف. القاهرة.
- الطوسي (أبو جعفر): [تلخيص الشافي] طبعة النجف ١٣٨٣ - ١٣٨٤ هـ.

- عبد الجبار بن أحمد (قاضي القضاة): [المغني في أبواب التوحيد والعدل] طبعة القاهرة؛ [فصل الاعتزال وطبقات المعتزلة] طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م؛ [تثبيت دلائل النبوة] طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م.

- فان فلوتن: [السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.

- فلهوزن (يوليوس): [تاريخ الدولة العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

- القرطبي: [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية.

- الماوردي: [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م.

- محمد عمارة (دكتور): [المعتزلة والثورة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٧؛ [الاسلام والثورة] (تحت الطبع)؛ [الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م.

- محمد فؤاد عبد الباقي: [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب. القاهرة.

- المسعودي: [مروج الذهب] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

- المقدسي: [أحسن التقاسيم] طبعة ليدن سنة ١٨٧٧ م.

- المقريزي: [الخطط] طبعة دار التحرير. القاهرة.

- نجيب العقيقي: [المستشرقون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م.

- يحيى بن آدم: [الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ.

- [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي] وضع الاتحاد الأممي لجمعيات الاستشراق. طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م.

فهرس

عمر بن عبد العزيز

